باولو فرايري

تعليم المقهورين

ترجمة وقدم له
الدكتور يوسف نور عوض

دار القلم
بيروت - لبنان

الاهداء

الى المقهورين والذين يقاسون معهم ويحاربون الى جانبهم

المؤلف

مقدمة المؤلف

هذه الصفحات التي أكتبها تقدمة « لتعليم المقهورين » هي نتيجة ملاحظاتي خلال الست السنوات التي عانيت فيها ظروف النفي السياسي ، وهي ملاحظات أثْرَتْ ـ بلا شك ـ خبرتي السابقة والتي اكتسبتها في مجال التعليم في البرازيل ، فلقد عرفت من « الكورسات » التي تحلل دور الوعي وتجربتي العملية معنى مفهوم « الخوف من الحرية » الذي عالجته في الفصل الاول من هذا الكتاب . فليس من النادر أن يظهر الطلاب خوفهم من الوعي الذي يكشف عن خوفهم من الحرية ، فكثيرون منهم يقولون : « ان الوعي الناقد يزلزلهم » ويقول بعضهم ، ان هذا الوعي كفيل بأن يقودهم الى الفوضى ،وبرغم ذلك فلن نعدم واحداً منهم يقول : لماذا أنكر ؟ لقد كنت خائفاً من الحرية أما الآن فإني لست خائفاً منها .

لقد كانت إحدى المجموعات تناقش ما اذا كان الوعي ببعض صور الظلم يقود الى عصبية يدمرون بها ذلك الوضع أم يقودهم الى الاحساس الشامل بانهيار عالمهم ؟

لقد قال أحد الرجال ـ وقد عمل لعدة سنوات في أحد المصانع ـ خلال المناقشة : « ربما كنت الوحيد هنا الذي ينحدر من أصل عمالي وعلى الرغم من أنني لا استطيع أن أدعي بأني فهمت كل ما قلتموه الآن ، فإنني استطيع أن أقول شيئاً واحداً هو أنني عندما بدأت هذا الكورس كنت ساذجاً وبمجرد احساسي بهذه

السذاجة شعرت بأنني أتعلم النقد وأستطيع أن أقول إن تعلمي النقد لم يجعلني متعصباً ولم يجعلني أشعر بالانهيار » .

ويتبين من ذلك ، أن الرجال لا يستطيعون دائماً أن يوضحوا الشكوك التي تساورهم حول الآثار المترتبة على عملية الوعي ، ولذلك فمن المستحسن الا يتعرف ضحايا الظلم على أنفسهم من هذه الزاوية ، وفي الحقيقة فإن الوعي لا يمكن ـ بحال من الأحوال ـ أن يقود الرجال الى عصبية مدمرة ، بل على العكس من ذلك فان دخول الرجال في العملية التاريخية كصانعين لها من خلال وعيهم بدورهم فيها يساعدهم في البحث عن تأكيد أنفسهم وبذلك يتجنبون أي نوع من التعصب

« ان يقظة الحس النقدي تؤدي بالضرورة الى اظهار الرفض الجماعي لأن ما يرفضونه أثر من آثار مجتمع القهر »

وعلى الرغم من ان الكثيرين لا يتبينون خوفهم من الحرية على الوجه الصحيح فإن هذا الخوف يساعد صاحبه على ألايرى سوى الاشباح ، ولذلك فهو يطلب لنفسه الامن الذين يفضله على ارتكاب المخاطرة من أجل تحقيق حريته وكما يقول هيجل في ظاهرة العقل

« انه فقط وبالمخاطرة بالنفس تتحقق الحرية للانسان ، وعلى الرغم من أن الانسان الذي لا يجرد حياته قد يعترف به الناس « شخصاً » فإن مثل هذا الانسان لا يستطيع أن يمارس حقيقة وجوده كشخص الا حين يتحلى بالوعي الذاتي »

ولما كان الناس قليلاً ما يعترفون بخوفهم من الحرية فهم يميلون دائماً الى تمويه هذه الحقيقة ، ربما دون وعي في بعض الاحيان ـ بتنصيب أنفسهم مدافعين عنها ، فالذين يخافون الحرية يحاولون دائماً أن يغلفوا شكوكهم في اطار من العقلانية والتدبر العميق الذي هو في حقيقته خوف من الحرية وفي معظم الاحيان فإن هؤلاء لا يرغبون للحرية أن تؤثر على وضعهم الاجتماعي الثابت فاذا كان الوعي يشكل تهديدا لهذا الوضع فإنه بالتالي في نظرهم تهديد للحرية ذاتها .

ويمكنني أن أقول ان « تعليم المقهورين » لم يخرج نتيجة الدراسة والتفكير وحدهما ، ذلك أنه مبني على أوضاع حقيقية ، فهو يصف موقف العمال - زراعاً كانوا أم صناعاً - وموقف الطبقة الوسطى التي لاحظتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة خلال تجربتي التعليمية ولا شك أن الاستمرار في الملاحظة سوف يعينني على تطوير النقاط التي عالجتها في هذا الكتاب عندما أتناولها في دراسة قادمة وإنني لعلى يقين من أن ما كتبته سيقابل بشيء من الرفض من قبل بعض القراء الذين يعتبرون موقفي من مسألة تحرير الانسان مجرد فرضية نظرية ، أو الذين يعتبرون مناقشي لامكان تحلي الانسان بروح الحب والحوار والتواضع والرحمة والامل موقفاً رجعيا ، وقد يرفض بعضهم نبذي لتلك الاوضاع التي لا يستفيد منها الا القاهرون ، لكل ذلك فإني أقول بأن عملي هذا موجه الى الراديكاليين على الرغم من أن المسيحيين والماركسيين سيختلفون معي سواء كان ذلك بصورة شاملة أو جزئية . فإنهم سيظلون يقرأون كلامي الى النهاية ، أما الذين سيقفون منى موقفاً لا عقلانياً متعصباً فسيرفضون الحوار الذي آمل ان يثيره هذا الكتاب ، ذلك أن المذهبية التي يغذيها التعصب عقبة تحول بين الانسان والفهم ، أما الراديكالية فلانها تتحلى بروح النقد فانها ذات طبيعة ابداعية .

واذا كانت المذهبية القائمة على التعصب تؤدي الى التغريب بما تفرزه من خرافات وأساطير ، فإن الراديكالية تزيد من التزام الفرد بالموقف الذي اختاره ، ولذلك فهو يجد نفسه مستغرقاً في العمل من أجل تغيير الواقع الموضوعي ، وعكس ذلك تماماً ، فلأن المذهبية تموه الواقع ولا تستند على أسس عقلية فإنها تجنح الى التزييف والتزوير وهي في كل الظروف تمثل عقبة كأداء في طريق تحرر الجنس البشري ، ولكن ذلك لا يعني أن النزعة الراديكالية في جميع الظروف تتمخض عن عمل ثوري اذ ليس نادراً أن يتحول الثوريون الى رجعيين بعد وقوعهم في إسار المذهبية وذلك خلال عملهم في مواجهة المذهبية اليمينية ، غير أن هذا الامكان يجب ألا يجعل « الراديكاليين » يستجيبون لنزعات الصفوة المتسلطة ، ذلك أن الانسان عندما يلتزم بالعمل التحريري لا يمكن له أن يظل سلبياً في مواجهة العنف . ومن الجانب الآخر ، فإن « الراديكالي » لا يمكن له أن يكون أنانياً ، فهو لا تظهر ذاتيته

الا حين يلتزم بالفعل أو الموضوع ، فالذاتية والموضوعية هي علاقة جدلية تمده بطاقة المعرفة من أجل مزيد من التماسك والوحدة مع الآخرين في العمل والعكس بالعكس .

وفي ضوء هذا يبدو أن المذهبية - بصرف النظر عن منطلقاتها - هي في حقيقتها ضرب من العمل وتعطيل للعقل ، ولما كان المذهبي غير قادر على رؤية ديناميكية الواقع فإنه يسيء فهمه ، وحتى لو حاول أن يفكر بأسلوب جدلي فإن جدليته تكون من النوع المدجن ، فالمذهبي اليميني والذي اسميته في بعض كتاباتي - المولود على تلك « الشاكلة » إنما يرغب في تعطيل حركة التاريخ رغبة منه في تدجين الزمن ، أما المذهبي اليساري فإنه يشتط حين يحاول فهم الواقع والتاريخ بأسلوب جدلي ولذلك فإنه كثيراً ما يواجه مواقف قاضية . ويختلف المذهبي اليميني عن المذهبي اليساري في أنه يريد أن يدجن الحاضر حتى يولد المستقبل كما يأمل على صورته أما اليساري فانه يعتبر المستقبل حتماً ومصيراً ، واذا كان اليميني يرى الحاضر موصولاً بالماضي كقدر لا يمكن رده فإن اليساري يرى في المستقبل واقعاً حددت هويته من قبل ولا يمكن تغييره على الاطلاق . وفيما يبدو فإن كلا اليساري واليميني رجعيان في نظريتهما ذلك أنهما يبتدئان من تصور مزيف للتاريخ ، فكلاهما ينكر مفهوم الحرية ، فأحدهما ينظر الى الحاضر نظرة مثالية والآخر يعلق كل اماله على المستقبل ولا يعني ذلك سوى أحد أمرين اما أن يقلع الناس عن أي عمل مؤملين أن يستمر الحاضر المثالي واما ان يقلعوا عن ذلك أيضاً منتظرين لمستقبل قد تم تحديده فيما قبل ولا سبيل الى صنعه ، وفي اطار هذا الانغلاق اليقيني يأسر كل منهما نفسه في تصور خاص للواقع لا يمكن أن يتهرب منه ليرى أن العالم انما يتغير بواسطة الرجال الذين يحاربون جنباً الى جنب ليتعلموا كيف يبنون المستقبل الذي لم تحدد هويته فيما قبل بل هو ينتظر الرجال كي يبدعوه ، وهكذا يتبين لنا ان كلا المذهبيتين يتعاملان مع التاريخ وكأنه ملكية خاصة قابلة للتحقيق بدون الرجال وهذه صورة أخرى من صور وقوفهم الى جانب مجتمعات القهر .

واذا كان اليميني بانغلاقه في داخل الحقيقة التي كونها لنفسه لا يفعل أكثر من

أداء دوره الطبيعي ، فان اليساري الذي يصبح مذهبياً ومتحجراً فإنه بلا شك يعارض طبيعته وكلاهما يشعران بالتهديد عندما يحاول أحد أن يفند معتقداتهما في معرفة الواقع لان كلاً منهما يعتقد أن ما يخالف مذهبه في تصور الحقيقة انما هو ضرب من الكذب ، وكما قال الصحفي « مارسيو موريرا الفس » فان كليهما يعانيان من غياب الشك »

أما الراديكاليون فبسبب انحيازهم لحرية الانسان فلا يسمحون لتصوراتهم أن تكون رهنا لدائرة مغلقة تحبس الحقيقة في داخلها بل على العكس من ذلك فكلما ازدادت راديكالية الانسان كلما ازداد حبه لمعرفة المزيد عن الحقيقة وبذلك يستطيع أن يقوم بدور التطوير على أحسن وجه ، فالراديكالي لا يخاف المواجهة او الاستماع حباً في كشف المزيد عن حقيقة العالم وهو أيضاً لا يخاف مقابلة الناس أو الدخول في حوار معهم ، لانه لا يعتبر نفسه مالكاً للتاريخ أو محرراً للمقهورين وانا يعتبر نفسه محارباً في صفوفهم في اطار العمل التاريخي .

. وهكذا فان تعليم المقهورين الذي سطرت مقدمته في الصفحات التالية انما هو عمل يقوم به الراديكاليون ولا يمكن أن يقوم به المذهبيون وسأكون سعيداً عندما أجد من بين قراء هذا الكتاب من يصححون أخطائي وسوء فهمي ليبلوروا الامور التي لم أتعرض لها أو يعمقوا تأكيدها ـ وقد يوجد من يتساءل عن أهليتي في مناقشة كيفية العمل الثقافي الثوري انطلاقاً من اعتقاده بعدم خبرتي في هذا النوع من العمل ومن حقي أن أقول ان عدم اشتراكي في عمل ثوري مباشر لا يجردني من رؤيتي في هذا الامر وأضيف أن خبرتي كمعلم مارس مع الناس أسلوب التعليم الحواري وطرح المشكلات قد أمدتني بثروة مناسبة من الفكر تجعلني أجرؤ على خوض هذا الموضوع .

وأرجو من خلال هذه الصفحات أن تبقى على الأقل ثقتي في الناس وايماني بالرجال الذين سيقومون بخلق العالم الجديد الذي يسوده الحب وهنا يحق لي أن أشكر « الزا » زوجتي التي كانت أول من قرأ هذا العمل على حسن تفهمها وتشجيعها في اظهاره ، وهذا العمل هو أيضاً عملها كما أشكر جماعة من الأصدقاء

قاموا بالتعليق على الأصول وأخص منهم « جودافيجا » و« وريتشارد شول » و « جيم لامب » و« ميرا » و« جوفيلينوراموس » و« باولو دي تارسو » و« المينو افونسو » و« بلينو سامبايو »و« أرناني ماريا فيوري » و« مارسيلا قاجاردو » و « حوزي لويس فيوري » و« جو زاكاريوتي »

وانني اتحمل بالطبع المسئولية كلها وحدي

المؤلف

الفصل الأول

تعليم المقهورين

احتلت قضية الأنسنة من الناحية الأخلاقية المركز الرئيسي في اهتمام الانسان ، وعلى الرغم من أنها ما تزال تحتل قدراً كبيرا من الاهتمام- لا يمكن تغافله-فان هذا الاهتمام يقودنا بالضرورة الى الاعتراف بما يناقضها وهي ظاهرة « اللاأنسنة » ـ ليس بصفتها امكانا بل بكونها حقيقة تاريخية ـ فعندما يستجلي الانسان حقيقة « اللاأنسنة » يساوره سؤال حول ما اذا كانت الانسنة في حد ذاتها أمراً يمكن تحقيقه بصورة كاملة ، ذلك أن النظر الموضوعي لحقائق التاريخ يؤكد أن كلا الانسنة واللاأنسنة امكانان في نظر الانسان المدرك لحقيقة نقصه . وبينما تشكلان خيارين متمايزين فان الأنسنة هي أهم مجال يعمل فيه الانسان ، برغم ما تواجهه قضيتها من رفض متعمد ومستمر لها ، فهي ما تزال ترزح تحت وطأة الظلم والاستغلال والقهر والعنف الذي يمارسه القاهرون . وعلى الرغم من ذلك فان حقيقتها تتأكد بنداءات المقهورين للحرية والعدالة ونضالهم المستمر من أجل استعادة انسانيتهم الضائعة ، فاللاأنسنة لا تميز حقيقة أولئك الذين سلبوا انسانيتهم فحسب بل أيضاً وبطريق أخرى حقيقة أولئك السالبين ، ذلك أن اللاأنسنة في جوهرها اخلال بقدرة الانسان على أن يمارس وجوداً بشرياً متكاملاً . ومثل هذا الاخلال كثيراً ما يحدث في التاريخ ، ولكنه لا يشكل في جوهره حتمية تاريخية ذلك أن اعتبار اللاأنسنة حتمية تاريخية إنما يؤدي الى الجنون أو اليأس الكامل ، ولا يخفى تأثير ذلك على القيمة المعنوية لمفاهيم الانسنة وحرية العمل وتجاوز الغربة من أجل تأكيد حقيقة الانسان . وهنا يحق لنا أن نقول : ان النضال من أجل الأنسنة يصبح ذا جدوى فقط عندما ندرك أن اللاأنسنة برغم أنها ظاهرة في التاريخ فهي لا تشكل حتمية مصيرية ، فهي مجرد ظاهرة مؤقتة تعكس الظلم المكرس بالقوة في أيدي القاهرين ويمارسه هؤلاء ضد المقهورين ، ولما كان هذا الاخلال يحول دون التحقيق الكامل لأنسنة المقهورين فسرعان ما يبدأ هؤلاء ـ تحت وطأة الاستلاب ـ الاحساس

بحاجتهم الى النضال ضد أولئك الذين حالوا دون ممارستهم لوجودهم الانساني الكامل ، غير أنه من أجل أن يصبح هذا النضال ذا جدوى فإن على المقهورين الا يمارسوا في النهاية دور القاهرين ، بل عليهم أن يدافعوا عن انسانيتهم وانسانية قاهريهم في نفس الوقت ، ذلك أن المضطهدين الذين يمارسون القهر والاستلاب والاغتصاب بفضل ما يتمتعون به من قوة ، لا يمكنهم وهم تحت نشوة الاحساس بالسطوة تحرير أنفسهم أو تحرير مقهوريهم ، فالقوة التي تنبع من ضعف المقهورين هي وحدها الكفيلة بتحقيق الحرية لهم ولغيرهم . ولما كانت أي محاولة يقوم بها القاهرون من أجل تخفيف سطوتهم على المقهورين هي نوع من الكرم الزائف المقترن دوما باستمرار الظلم ، فيجب التنبه الى أن مثل هذا الكرم الزائف لا يزدهر الا في اطار نظام اجتماعي غير عادل يتسم بالموت واليأس والفقر ، فالكرم الحقيقي هو الذي يتجسد في محاربة وتحطيم الاسباب التي تزدهر في بيئتها ظواهر الكرم الزائف ، ذلك أن مثل هذا النوع من الكرم يغل أيدي الخائفين والمحطمين والمنبوذين المرتعشة ، أما الكرم الحقيقي فهو الذي يجعل تلك الأيدي تمتد طويلاً ، لا من أجل التسول بل من أجل مزيد من العمل الانساني الموعود بتغيير الحياة .

ويبدو من ذلك أن الدرس وتجربته لا بد أن يأتيا من قبل المقهورين والذين يتعاطفون معهم ، ذلك أن النضال من أجل استعادة انسانية المقهورين هو في واقعه امتلاك لناحية الكرم الحقيقي ، فمن أفضل من المقهورين في معرفة حقيقة مجتمع الاضطهاد ؟ ومن أكثر من المقهورين يعاني ويلات ذلك المجتمع ؟ بل من أحق من المقهورين في فهم حاجتهم الى تحقيق الحرية ؟ بيد أن الحرية لا تتحقق بالصدفة ، وانما بالنضال المدرك لضرورة تجسيدها ، وهو نضال أساسه الحب ويقف في كل الظروف نقيضاً لشعور العنف والكراهية اللذين تعتمل بهما قلوب القاهرين .

« حقاً فإن بعض المقهورين ـ خلال مرحلة النضال ـ بدلاً من أن يناضلوا من أجل تحقيق حريتهم فانهم يجنحون الى ممارسة دور القاهرين وأشباههم وهذا المظهر في واقعه انعكاس للواقع المتناقض الذي ظلوا يعيشون فيه » ، فقد حلم هؤلاء بأن يصبحوا رجالاً ولكن صورة الرجل ظلت في مخيلتهم هي صورة القاهر ، لأن هذا

هو المعنى المتجسد لمفهوم الانسانية في تصورهم ، وتفسير ذلك أن المقهورين في مرحلة من مراحل حياتهم يحسون بشيء من التوافق مع قاهريهم فلا يكادون يحسونهم خارج أنفسهم ، ولا يعني ذلك أنهم لا يعرفون واقعهم الحقيقي بل يعني أن تصوراتهم قد أفعمت بحقيقة الاضطهاد الذي يعانونه في كل يوم بدرجة جعلتهم لا يشعرون بضرورة النضال من أجل تغيير التناقض القائم بينهم وبين مضطهديهم . انهم لا يطمحون في هذه المرحلة في تحرير أنفسهم بل يكتفون بتمييزها كطرف آخر من العملية ، وهكذا فإنهم لا يستطيعون رؤية الانسان الجديد الذي سيولد من ازالة التناقض القائم بسبب وضعهم الحالي ، فالانسان الجديد في نظرهم انما هو صورة أخرى من صور قاهريهم ، وهكذا تتسم رؤيتهم للانسان بالفردية التي تحول دون تمييزهم لأنفسهم بعيداً عن تصورهم لقاهريهم ، فهم يفشلون في تمييز انفسهم كأفراد مضطهدين أو منتمين الى طبقة مضطهدة ، فاذا أرادوا الاصلاح الزراعي فليس من أجل أن يصبحوا أحراراً بل من أجل أن يصبحوا ملاكاً أو بتعبير ادق من أجل أن يصبحوا رؤساء على غيرهم اذ من النادر أن تجد فلاحاً يرقى الى مرتبة الاشراف على زملائه ولا يصبح طاغية بأكثر مما كان عليه صاحب الأرض نفسه ، فطبيعة القهر الذي عاناه الفلاحون تفرض عليهم مثل هذا الواقع وطبيعة القهر هي التي تفرض على الفلاح أن يكون مقتنعاً بقدرته على ممارسة الرئاسة حتى يمارس القسوة بمثل ما كان يمارسها صاحب العمل . وهذا يؤكد ما قررناه سابقاً من أنه خلال مرحلة النضال فان المقهورين يرون من نماذج القاهرين تجسيداً لرجولتهم الضائعة ، وحتى الثورات التي تستهدف تحرير المقهورين فانها تقع في نفس المأزق حين يحاول المقهورون المسهمون فيها أن يخضعوها لتصوراتهم أو يمتلكوها كانجاز خاص بهم ، فهؤلاء المقهورون يظلون دائماً أسرى لاشباح قاهريهم السابقين .

ويبدو من ذلك أن الخوف من الحرية هو الذي يجعل المقهورين راغبين في انتحال أدوار القاهرين وهو الذي يجعلهم قانعين بدور المقهورين وذلك ما يجب أن نتفهمه جيداً . وهنا يتضح لنا أن من أهم الأمور التي تحدد العلاقة بين القاهرين والمقهورين هو عامل التوقيف . وما نعنيه بالتوقيف هو فرض موقف ما على اختيار

رجل اخر من أجل تدجينه كي يتوافق مع الموقف المتغلب . وهكذا فان موقف المقهورين يكون دائماً منسجماً مع الملامح العامة لخصائص القاهرين وبمجرد أن يتمثل المقهور دور القاهر ويحتفظ بملامحه داخل نفسه يغدو خائفاً من الحرية ، فالحرية تقتضي أن ينزع المقهور صورة القاهر من قلبه ويحل مكانها ذاتيته الخاصة واحساسه بالمسئولية ، فهي تنتزع ولا تمنح ولأجل أن تبقى فلا بد أن يتعهدها الانسان بالرعاية المسئولة ، فالحرية ليست مطمحاً يعيش خارج الانسان أو فكرة تتحول الى أسطورة وانما هي في الحقيقة ضرورة لا غنى عنها من أجل كمال الانسان .

وهكذا فلأجل أن يتغلب الانسان على ظروف القهر فان عليه ان يتعرف على أسبابه حتى يتمكن من تطوير موقف جديد يحقق فيه انسانيته الكاملة ، وعلى الرغم من أن ظروف القهر قد فرضت واقعاً لا انسانياً على المقهورين والقاهرين في نفس الوقت ، فان على المقهورين مسئولية نضالية من أجل استعادة انسانيتهم المفقودة وذلك أمر لا يستطيعه القاهرون لانهم لوثوا أنفسهم باضطهاد الآخرين . ولكن علينا أن نعلم أيضاً أن المقهورين الذين أقلموا أنفسهم مع ظروف القهر لن يكون في مقدورهم النضال من أجل الحرية ما ظلوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم غير قادرين على القيام بمخاطرها ، ولعل نضال هؤلاء لا يهدد القاهرين فحسب بل يهدد زملاءهم في القهر أيضاً ولكن عندما يشعرون بدافع الى التحرر فستزداد قناعتهم بأن هذا الشعور لن يأخذ طريقه الى الواقع الا حين يصبح هدفاً لجميع المقهورين . أما وهم مقيدون بعقدة الخوف من الحرية فانهم لا يستطيعون الاستجابة الى نداءات الآخرين او نداءات أنفسهم وسيفضلون حياة القطيع على الزمالة الحقة أو لعلهم يفضلون التوافق مع واقعهم غير المتحرر على ذلك الابداع الجماعي الذين يتحقق لهم بفضل الحرية أو النضال من أجلها .

ويبدو من ذلك أن المقهورين يعانون من ازدواجية انغرست في ضمائرهم ، فعلى الرغم من أنهم يشعرون بأنهم من غير الحرية لا يستطيعون تحقيق وجودهم الذاتي فانهم في نفس الوقت يخشون الحرية ويزاوجون بين احساسهم الخاص واحساس القاهر المتمثل في ضمائرهم وهكذا يحتدم الصراع بين أن يكونوا أنفسهم

وأن يكونوا قاهريهم ، بين أن ينتزعوا شخصية القاهر من ضمائرهم وبين أن يبقوا عليها ، بين أن يحققوا تكاملهم الانساني وبين الابقاء على غربتهم الذاتية ، بين أن يقبلوا التوقيف وبين أن يمتلكوا حرية الاختيار ، بين أن يصبحوا متفرجين وبين أن يصبحوا ممثلين ، بين أن يلعبوا دورهم الحقيقي وبين أن يلعبوا دور قاهريهم،بين أن يتكلموا بصراحة وبين ان يلزموا الصمت مكبلين طاقتهم في الابداع واعادة الابداع من أجل بناءعالمهم الجديد ، تلك هي أزمة المقهورين المأساوية وهي التي يجب ان يحفل بها نوع التعليم الذي يتدربون عليه .

****

سوف يحفل هذا الكتاب ببعض الوجوه التي أسميتها « تعليم المقهورين » وهو نوع من التعليم حري بأن يصاحب المقهورين خلال نضالهم المستمر من أجل استعادة انسانيتهم ، وطريقتي تعتمد على تجلية القهر أمام المقهورين حتى يتسنى لهم النضال من أجل اكتساب حريتهم ، ولا شك عندي أن هذه الطريقة سوف تولد مرات ومرات خلال عملية النضال . أما المشكلة الرئيسية في هذا الكتاب فتتركز حول سؤ ال أساس وهو . كيف يستطيع المقهورون المقسمون والذين لا يشعرون بوجودهم المتحقق ان يسهموا في تطوير أسلوب تعليمي يستهدف تحريرهم ؟

والاجابة عندي هي أنهم بمجرد أن يكتشفوا حقيقة أنفسهم كرهائن في أيدي القاهرين يبدأون مخاضاً سيسفر ولا شك عن ولادة حريتهم ولا بد لنا أن نعلم ان هذا المخاض سيتعثر كثيراً اذا ظل هؤ لاء يمارسون ازدواجية الكينونة ، فمثل هذه الممارسة تحول بينهم وبين الاسهام الفعال في مخاض الحرية ، ويتأكد من ذلك أن تعليم المقهورين هو أداة نقدية يكتشف بها المقهورون حقيقة أنفسهم وحقيقة قاهريهم كضحايا للنزعات اللاانسانية ، فالحرية ولا شك مخاض مؤلم ، غير أن الانسان الذي سينبثق في أجوائها هو ولا شك كائن جديد يتمتع بانسانيته أو بمعنى آخر هو كائن سيقضي على التناقض القائم في علاقة القاهرين والمقهورين،ذلك أن عمل الانسان الجديد سيكون مستغرقاً في تحقيق مزيد من الحرية،وينبغي الا يكون

هذا الامل مطمحاً مثالياً بل يجب أن يأخذ طريقه الى الواقع،وسبيل المقهورين الى ذلك هو أن يشنوا حربهم من أجل الحرية ، ومتى أدرك هؤلاء حقيقة الاضطهاد وعرفوا أنه مجرد عقبة يمكن تجاوزها ، كان ذلك بداية عملهم في طريق النضال ، واذا كنا نركز على ضرورة مثل هذا الادراك ، فإننا لا نعتبره وحده كافياً من أجل تحقيق الحرية ، فلا بد أن يصبح الادراك قوة فعلية تحرك عملية النضال،فمجرد احساس المقهورين بأنهم يعيشون في علاقة جدلية يمثل وجودهم فيها النقيض المضاد لوجود القاهرين هو في حد ذاته ضرب من التحرر ، ولكن المقهورين لا يستطيعون تجاوز تناقضاتهم الا حين يقودهم هذا الاحساس الى بدء النضال من أجل حريتهم ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للقاهرين ، ذلك أن احساس القاهر بكينونته كقاهر يسبب له ضيقاً ولكن هذا الضيق لا يقوده الى أن يتفاعل مع المقهورين في حركة واحدة ، فالقاهر تحت ضغط الاحساس بالذنب قد يجعل من سلوكه أبوياً تجاه المقهورين ولكنه لن يفعل شيئاً لاخراجهم من دائرة الاعتماد عليه ، فالتفاعل مع المقهورين يتطلب عملاً لا يتقنه القاهرون لانه يدخلهم في دائرة أولئك الذين يختلفون عنهم ، واذا صدق القول بأن الذي يميز المقهورين هو خضوعهم للاحساس بوجود السيد كما يقول هيجل ، فإن الالتحام الحق مع هؤلاء يعني النضال الى جانبهم لتغيير الحقيقة الموضوعية التي جعلتهم يعيشون ضمير غيرهم . ولا يستطيع القاهر أن يظهر تضامنه مع المقهورين الا حين يتوقف عن اعتبارهم طائفة مبهمة ويبدأ في النظر اليهم كأفراد عوملوا بظلم وسلبوا أصواتهم بل وخدعوا في بيع أعمالهم . هذه هي اللحظة التي يتوقف فيها القاهر عن استخدام عواطفه وانفعالاته الخاصة للمغامرة في تمثيل دور الحب،ذلك أن التضامن لا يوجد الا في حقيقة هذا الموقف العملية وهي حقيقة تؤكد ان الرجال بشر ومن حقهم أن يتحرروا .

وما دام تناقض القاهر والمقهور قائماً فان من حقنا أن نبين أسباب هذا التناقض بشيء من الموضوعية وهنا لا بد لنا من التأكيد على أن الموقف الثوري يتطلب من الذي يكتشف في نفسه صفة القهر أو الانقهار أن يعدل موقفه لتطوير الموقف الأفضل ، ولكي يتحقق هذا الموقف الثوري في الحياة الواقعية علينا ان نعترف بذاتية

النضال من اجل التغيير ، ذلك أنه من غير المعقول أن يرى الانسان موضوعية انجازه دون احساسه الذاتي بذلك ، فحيث توجد الذاتية توجد الموضوعية ويستحيل توحيد الذاتية والموضوعية في موقف واحد لأن كليهما يتداخلان في علاقة جدلية متصلة . ان انكار أهمية الذاتية في عملية تغيير العالم والتاريخ هو ضرب من السذاجة والسطحية وهو كالاعتراف بالمستحيل أو كالاعتراف بعالم من غير جال ، فالعالم والرجال يتفاعلان معاً ولا يمكن أن ينفصلا ، فلم ينكر ماركس هذه العلاقة المتفاعلة بين العالم والانسان كما لم ينكرها أي مفكر آخر ، فما نقده ماركس وحاول أن يحطمه بمنهجه العلمي ليس هو الذاتية أو السايكلوجية كظواهر لازمة بل كغايات يفسر بها العالم ، فكما أن الحقيقة الاجتماعية الموضوعية لم توجد بالصدفة بل وجدت كنتيجة لجهود الانسان كذلك فان عملية التغيير لا تتم بالصدفة بل تتم نتيجة لجهود الانسان ،واذا كان الرجال هم الذين يحدثون التغيير في الحقائق الاجتماعية فان تلك الحقائق تصبح بالضرورة عملا تاريخياً من صنع الرجال .

وهكذا فان الواقع الاجتماعي القهري هو نتيجة حتمية للتناقض القائم بين القاهرين والمقهورين ، واذا كانت مسئولية المقهورين تحتم عليهم النضال من أجل استعادة حريتهم مع أولئك المتضامنين معهم فان ذلك يفرض عليهم ادراك حقيقة الاضطهاد خلال عملهم النضالي ، فمن اصعب الامور التي تواجه العمل النضالي من أجل الحرية هو أن حقيقة القهر تفرض سطوتها على قلوب الرجال وتجعلهم مستغرقين فيها ، وكما يقولون « فان القهر يدجن » وحتى لا يصبح الانسان فريسة للقهر فان واجبه يحتم عليه أن يتحرر منه وينقلب عليه ولن يتم هذا الا بالنضال ووضوح الرؤ ية وارادة التصميم التي تستهدف تغيير العالم ، فواقع القهر يبدو أكثر فاعلية ، بل ويتحقق بشكل موضوعي حين نضيف اليه اعترافاً بحقيقته وذلك ما يقابل العلاقة الجدلية بين الذاتي والموضوعي ، ففي مثل هذه العلاقة يصبح العمل النضالي من أجل الحرية ممكناً وبغيره لا يمكن حل التناقض القائم في علاقة القاهرين والمقهورين ، ولاجل أن يحقق المقهورون أهدافهم فان عليهم أن يواجهوا الحقيقة بروح قادرة على النقد والتجسيد الموضوعي ، ذلك أن مجرد الاحساس بالواقع دون القدرة على نقده لا يؤدي الى التغيير المطلوب لسبب بسيط هو أن مثل

هذا الاحساس لا يكون صادقاً لانه في حقيقته مجرد رؤ ية ذاتية تضحى بالحقيقة الموضوعية وتخلق لها بديلاً كاذباً .

ويحدث تصور آخر كاذب عندما يهدد التغير في الحقيقة الموضوعية مصالح الفرد أو مصالح طبقته ، ففي مثل هذه الحال لا يتدخل الانسان بالنقد الواعي للواقع لأن الواقع نفسه غير حقيقي ونتيجة لذلك فلن يحدث تغير لأن التغيير يهدد مصالح الطبقة بأسرها وهكذا يجد الانسان نفسه يتصرف بعصبية لكون الحقيقة متحازة ضده ولا يجد هذا الانسان بدأ من تمثيل دوره الى النهاية ، ينكر الحقيقة أو يفسرها بصورة مختلفة ومثل هذا الدفاع عن النفس يتفق تماماً مع أسلوب النظر الذاتي للمشكلات حيث تضيع الحقيقة على الرغم من عدم انكارها وبذلك تتوقف عن أن تصبح واقعاً مجسداً ليحل محلها وجود وهمي أوجدته الطبقة للدفاع عن موقفها ، وهنا تكمن الأسباب أو العقبات التي صممت من أجل تعطيل الناس عن ممارسة دورهم النقدي للواقع ، فالقاهر يعلم تمام العلم أن مثل هذا النقد لن يكون في صالحه ، فمصلحته لا تتحقق الا عندما يستمر الناس في استغراقهم وعجزهم أمام حقيقة القهر . ويتضح من ذلك أن تبصير الناس بحقيقة دورهم يتطلب توضيحاً وتوعية بطبيعة ذلك الدور وهذا يفرض بالضرورة أن يعلم الناس عن العلاقة التي تربط بين مسئوليتهم وبين الأهداف التي تنتظرهم ، فبقدر ما يستطيع الناس كشف القناع عن طبيعة دورهم بقدر ما تكون كفاءتهم في عملية التغيير ، فالناس في مثل هذه الحال على وعي بما يلحق تصرفاتهم من تطورات في المستقبل ، ولعله من نافلة القول أن نؤ كد أنه لن يكون هنالك انجاز انساني ما لم تتضح الأهداف ، كما ولن يكون هنالك عالم متحرر ما لم يواجه الانسان مسئولية التحدي ، وهكذا فان العمل الانساني لن يتحقق الا اذا استطاع الانسان أن يرتفع بمستواه ليرى الحقيقة ويتفهمها من أجل أن يعمل على تغييرها ، وقد عرفنا في الفكر الجدلي طبيعة العلاقة الوثيقة بين العالم والفعل ، ونؤ كد هنا أن الفعل لا يكون انسانياً الا حين يتم في ضوء بصيرة واعية وكما هو متضمن في شروط « لوكاس » فان الرؤ ية أو البصيرة الواعية ضرورية من أجل شرح دور الجماهير في الفعل . أما بالنسبة لنا فان الأمر لا يقتصر على عملية الشرح بل لا بد من الدخول في حوار مع

الجماهير لتبصيرها بدورها ، وعلى أي حال فان المسئولية التي يلقيها « لوكاس » على عاتق الحزب الثوري من أجل شرحها للجماهير تتطابق مع قولنا بضرورة تدخل الجماهير في عملية النقد من خلال تجربتها العملية ، فتعليم المقهورين الذي هو في حقيقته تعليم الرجال المناضلين من أجل حريتهم يستمد حقيقته الجذرية مما ذكرناه آنفا ، فالرجال الذين يدركون أو يبدأون في إدراك حقيقة قهرهم هم القادرون على القيام بهذا الدور التعليمي ، ذلك أن التعليم الذي يؤدي بالضرورة الى تحرير الانسان يمكنه أن يظل بعيداً عن واقع المقهورين يعاملهم كتعساء ثم يقدم لهم صورة نظرائهم في التعاسة من القاهرين . اذاً فلا بد للمقهورين من أن يمارسوا تجربتهم النضالية من أجل الخلاص ، وهكذا فان تعليم المقهورين الذي يتجسد في صورة كرم انساني يقدم نفسه كتعليم صالح للرجال ، غير أن التعليم الذي ينطلق من دوافع أنانية تستهدف جعل القاهر متفضلاً انسانياً هو في حد ذاته ضرب من القهر أو هو وسيلة لتجريد الانسان من انسانيته وهذا مصداق ما ذكرناه سابقاً من أن تعليم المقهورين لا يمكن أن يضطلع بمسئوليته القاهرون لان مجرد قيامهم بدور المحرر يتناقض مع وظيفتهم كقاهرين .

ومن واجبنا أن نتساءل كيف يستطيع المقهورون تحرير أنفسهم بواسطة التعليم قبل الثورة وهم لا يملكون القوة السياسية التي تؤهلهم لذلك ؟ انه سؤال على جانب كبير من الأهمية وسنركز الاجابة عليه بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، غير أنه يجدر بنا هنا أن نشير الى ضرورة التفريق بين التعليم النظامي الذي لا يمكن تغييره الا بواسطة القوة السياسية والبرامج التعليمية التي يقوم بها المقهورون خلال مرحلة تنظيم أنفسهم .

ان تعليم المقهورين كممارسة انسانية من أجل الحرية لا بد له أنه يمر بمرحلتين متمايزتين ، في المرحلة الأولى يستجلي المقهورون عالم القهر ومن خلال ممارستهم للنضال يلتزمون بتغيير هذا الواقع ، وفي المرحلة الثانية أي بعد أن تتضح حقيقة القهر لا يصبح التعليم من أجل المقهورين فقط بل يصبح من أجل الرجال كلهم لأجل تحقيق حريتهم الدائمة ، وفي كلتا المرحلتين فإن النضال وحده هو الذي

يتصدى لثقافة التسلط ، ففي المرحلة الاولى يبدأ المقهور رؤ ية جديدة لعالم القهر المفروض عليه وفي المرحلة الثانية ينزع عن نفسه الأوهام التي خلفتها في نفسه ظروف الوضع السابق ، وعلى ذلك فان تعليم المقهورين في المرحلة الأولى لا بد له أن يستثير الوعي بحقيقة وجود المقهور وحقيقة وجود القاهر أو بمعنى آخر حقيقة وجود رجال يمارسون القهر على الآخرين ورجال يعانون من ويلات هذا القهر . لا بد لهذا النوع من التعليم من ملاحظة سلوك المقهورين وأخلاقياتهم ونظرتهم للعالم، ذلك أن المقهورين يمارسون في كثير من الأحيان وجوداً متناقضاً أصلته فيهم نزعة الاضطهاد والعنف ، وعلينا أن نعرف أن أي وضع يستغل فيه انسان انساناً آخر أو يعطل قدراته في تحقيق ذاته هو ضرب من القهر العنيف وان غلف في اطار من الكرم الزائف ، ذلك أن مثل هذا السلوك يحول دون ممارسة الكينونة الذاتية للانسان .

ويتضح من ذلك أن وجود علاقة تقوم على القهر يعني بالضرورة وجود علاقة يسودها العنف ولا نعرف في التاريخ كله أن العنف قد بدأ به المقهورون اذ كيف يتصور أن يكونوا البادئين وهم في حقيقتهم نتاج ممارسة العنف ضدهم بل كيف يمكن أن يبادر هؤ لاء بالعنف والعنف هو في حد ذاته عمل موجه ضدهم ، فمن المستحيل اذاً أن يكون هنالك مقهور بدون أن يكون هنالك عنف قد مورس ضده ، فالعنف لا يبدأ به الا القاهرون الذين لا يستطيعون ادراك الحقيقة الانسانية في غير أنفسهم ، وبنفس المنطق فليس المفزَّع هو الذي يسبب الفزع وانما الذي يسبب الفزع هم القساة الذين يبذلون كل قواهم من أجل تكثير طبقات المنبوذين .

ومن البدهي أن نقول ليس المسحوقون أصلاً للطغيان ، وليس المحتقرون أصلاً للكراهية وانما أصل ذلك هم الذين يمارسون هذه الأمور ضد هؤ لاء ، ومن البدهي أيضاً أن نقول ليس الذين سلبوا حريتهم هم الذين يستلبون حرية الانسان وانما الذي يستلبها هم اولئك الذين جردوا هؤ لاء من انسانيتهم ، وبنفس المنطق نستطيع أن نقول ان الضعفاء لم يمارسوا القوة ضد الأقوياء وانما الذي مارس القوة ضد الضعفاء هم الأقوياء . وبرغم ذلك فان المقهورين في نظر القاهرين هم الذين

يحتملون بالكراهية والعنف والبربرية و « الوغدنة » والوحشية ولا سيا حين يتصدون لعنف القاهرين .

ولعله من الغريب أن المقهورين لا يحصلون على نفحة من عطف قاهريهم الا حين يواجهونهم بالعنف ، وهكذا فان انقلاب المقهورين الذي يعادل من حجمه في وجه اليهم من ظلم هو الذي يمنحهم شيئا من الحب ذلك في الوقت الذي يقف فيه عنف القاهرين حجر عثرة في طريق ممارسة المقهورين لحقوقهم الانسانية ، وبرغم ذلك فان ممارسة القاهرين لعملية الاستلاب يجعلهم يقعون في شر أعمالهم حيث يصبحون فريسة لما قاموا به من أعمال قاهرة ذلك أن ممارسة القاهرين للقهر تجردهم من انسانيتهم وتسلمهم للاستلاب بالضرورة ، وعلى العكس من ذلك تماماً فان المقهورين حين يحاربون من أجل استعادة انسانيتهم فانهم يجردون القاهرين من قدرتهم على القهر وبذلك يعيدون لهم حريتهم التي فقدوها خلال ممارستهم السابقة ، وهكذا فان المقهورين وحدهم هم القادرون من خلال عملية تحرير أنفسهم ، تحقيق حرية الآخرين ، أما القاهرون . فلمجرد كونهم قاهرين فانهم عاجزون عن تحرير أنفسهم أو تحرير غيرهم وذلك ما يحتم أن يشن المقهورون نضالهم من أجل ازالة التناقض الذي يعيشون فيه وسيتمخض عن هذا النضال الذي هو في طبيعته غير متسم بالقهر أو الانقهار الانسان الجديد وهو باختصار الانسان القادر على ممارسة حريته ،واذا كانت الحرية هي الهدف الذي يسعى المقهورون الى تحقيقه ، فان ذلك لن يتأتى اذا تركز هدفهم في عكس الوضع الذي كانوا عليه ، بمعنى أن يصبحوا في وضع القاهرين بعد أن كانوا في وضع المقهورين ولعله من التبسيط أن نقول : ان علاقة المقهور تنتهي عندما ينتهي دور القاهرين كطبقة مهيمنة اذ لا بد أن يمارس من كانوا في القهر ضوابط تحول دون ممارسة القاهرين لدورهم السابق في مجتمع القهر ولا تعد مثل هذه الضوابط نوعاً من القهر ، فالقهر لا يتحقق الا حين تحول الاجراءات دون ممارسة الآخرين لانسانيتهم الكاملة ومن ثم فان الضوابط الجديدة لا تعني أن مقهوري الأمس قد أصبحوا قاهري اليوم ، ذلك أن السلوك الذي يحول دون القاهرين واستعادة دورهم القديم لا يمكن أن يقارن بالسلوك القهري في صورته المعروفة ، فالسلوك القهري يعني بالضرورة أن أقلية ما

تحول دون ممارسة الأغلبية لوجودها الانساني ، وعلى أي حال فانه في اللحظة التي يتحول فيها النظام الجديد الى بيروقراطية متحجرة يفقد النضال دوره الانساني ويتعذر حينئذ الحديث عن الحرية وذلك ما يؤكد موقفنا من أن الحل الأمثل لعلاقة القاهر والمقهور لا يتحقق بمجرد قلب الوضع - أي بأن يصبح المقهور قاهراً وحسب - ففي مثل هذا الوضع لا يشعر القاهر السابق أنه قد حرر وإنما يشعر بأنه قد أخذ يتجرع مرارة القهر الذي أذاقه بغيره فيما قبل ، فالقاهر السابق قد تعود على أن يأكل ويلبس ويتعلم ويسمع بيتهوفن في الوقت الذي لا تجد فيه الملايين شيئا مما يجده وأي وضع يغير هذه الحقيقة في نظر هؤلاء هو افتئات على حرياتهم الشخصية ذلك أن القاهر السابق لا يعرف من الانسانية الا نفسه أما الآخرون فانهم مجرد أشياء . وهكذا فان الحق في نظر هؤلاء هو أن يمارسوا الحياة في سلام وطمأنينة أما غيرهم فلا يحق لهم الا مجرد العيش وقد ينكرون عليهم هذا الحق في بعض الأحيان ، ولعلهم لم يكونوا يعترفون للمقهورين بهذا الحق لولا أن ذلك ضروري بالنسبة لهم . وهذا النحو من فهم العالم هو الذي يجعل القاهرين يقاومون قيام أي نظام جديد .

ولعله بمجرد أن ينشأ موقف قائم على العنف فانه يؤثر على سلوك الداخلين فيه بأجمعهم سواء كانوا قاهرين أو مقهورين ، فالعنف هو ظاهرة ظل يمارسها القاهرون جيلاً بعد جيل والأجيال التي تتأقلم في جوه يصبح هذا السلوك جزءاً من مكوناتها وذلك ما يغذي في القاهرين حب التسلط والامتلاك للعالم والرجال ، فالقاهرون لا يستطيعون تبين حقيقة أنفسهم الا حين يقومون بدورهم كقاهرين .

يقول « فروم » انه بدون هذه النزعة الامتلاكية فإن القاهر يفقد اتصاله بالعالم ، ذلك أنه بطبعه يحول كل شيء حوله الى وجود خاضع لسلطته بصرف النظر عن كون هذا الوجود أرضاً أم زمناً أم رجالاً .

وهكذا في غمرة رغبتهم الجامحة في الامتلاك فان القاهرين يولدون من داخل أنفسهم قناعة بأن في مقدورهم تحويل كل كائن في هذا العالم الى شيء يدخل في

اطار قدرتهم الشرائية ، فالنقود عند هؤلاء هي عماد كل شيء ولا هدف للانسان من الحياة سوى تحقيق الربح ، لذلك فأنت تجد القاهرين في بحث دائم عن تحقيق المزيد من الربح . انهم يطلبون المزيد دائماً حتى وان تم ذلك على حساب المقهورين الذين قد يأخذون القليل أولا يأخذونه على الاطلاق ، وهكذا تبدو حقيقة الوجود عند هؤلاء متركزة في الامتلاك من جهة وفي أن يكونوا ضمن الطبقة المالكة من جهة أخرى ، وعلى الرغم من أنهم لا يرون العالم الا من زاوية الامتلاك فان الامتلاك لا يعتبر في نظرهم حقاً مشاعاً لكل الناس وذلك ما يجعل الكرم الصادر منهم نوعاً من الرياء ، فالانسانية عند هؤلاء حق يمتلكه الانسان بالوراثة وفي ضوء هذه النظرة فان الاعتراف بالحقوق الانسانية للآخرين في نظرهم هو قلب للأوضاع ، ولا يرى هؤلاء في احتكارهم قدرة الامتلاك شيئاً ينال من انسانية الآخرين ، فأنت تجدهم باحثين عن المزيد تحركهم دوافعهم الأنانية ، على الرغم من اختناقهم بما يمتلكون ، والغريب أنهم يعتبرون كل ما آل اليهم بطريق القهر حقاً قد كسبوه بمجهودهم بل ويعتبرون أن هذا الحق قد تحقق لهم بفضل شجاعتهم من ارتياد المغامرة وهم ينكرون على غيرهم مثل هذا الحق لأن الغير في نظرهم غير أكفاء وكسالى ولا يحمدون النعمة التي يتفضلون بها عليهم ، فالغير في نظر القاهرين ناكرون للجميل وحاقدون وتنبغي مراقبتهم باستمرار حتى لا يحصلوا على شيء من الحرية يقلبون بها الأوضاع وتتجسد بها شخصيتهم المعنوية . ويتبين من كل ذلك أن نزعة القاهرين في امتلاك كل شيء حتى الانسان هي ضرب من السادية وكما قال « فروم » ، في قلب الانسان « إن المتعة في تحقيق السيطرة على انسان آخر هي جوهر النزعة السادية وباستطاعتنا أن نقول ان السادية هي تجريد الانسان من انسانيته وتحويله الى مجرد شيء ذلك أن السيطرة الكاملة على الانسان تجرده من واحدة من أعز ممتلكاته ألا وهي الحرية »

وهكذا فان الحب السادي حب مشوه لأنه في الحقيقة حب للموت وليس حباً للحياة ويتضح من ذلك أن من أهم مقومات الشخصية القاهرة نزعتها نحو السادية فالشخصية القاهرة تجنح بالضرورة الى تدمير الطاقة الابداعية التي تكمن في الحياة ، وبذلك فهي تسهم في تدمير الحياة ، وفوق ذلك كله فان القاهرين يستخدمون

العلم والتكنولوجيا من أجل تحقيق أغراضهم التي تتركز في الابقاء على نظامهم القهري القائم على الاستغلال والبطش ، أما المقهورون في ظل هذا النظام فيعيشون كمجرد أشياء يتوجب عليها أن تنفذ ما يرسمه لها القاهرون .

ثمة أمر على جانب كبير من الأهمية ذلكم هو نزعة بعض القاهرين في هجر طبقتهم القهرية والانحياز الى طبقة المقهورين حيث ينتقلون من النقيض الى النقيض ، فأمثال هؤلاء يلعبون دوراً خطيراً في النضال ، وقد ظلوا كذلك على مر التاريخ ، ولا يفوتنا أن هؤلاء عندما يتوقفون عن لعب أدوارهم كمستغلين أو كمراقبين غير مكترثين ويتم انتقالهم الى الطرف الآخر فانهم كثيراً ما يحملون أدواء طبقتهم الأولى التي تتمثل في الكراهية والتحيز وعدم الثقة في قدرات الآخرين الى المجتمع الجديد ، وكثيراً ما يتميز هؤلاء في وضعهم الجديد بنوع من الكرم يشبه ذلك الكرم الزائف الذي مارسوه في مجتمع القهر ، وقد أوضحنا فيما قبل أن هذا النوع من الكرم هو في حقيقته انعكاس لوضع غير عادل ، ولا ننكر أن هؤلاء المعتنقين الجدد لقضايا المقهورين يريدون تصحيح ذلك الوضع غير العادل ولكنهم بسبب خلفيتهم الثقافية فانهم يريدون احتكار هذا الدور لأنفسهم . انهم يتحدثون عن الناس ولكنهم لا يثقون بهم ، والثقة بالناس ، فيما نعلم هي أساس التغيير الثوري ، فلا تتجلى النزعة الانسانية في أبهى صورها الا عند أولئك الذين يثقون بالناس ، ذلك أن الثقة بالناس هي اجدى من آلاف الأعمال التي يقوم بها الثوريون من أجلهم دون أن يثقوا بهم .

واستناداً على ما ذكرناه فيتحتم على كل من يتصدى لقضايا الناس أن يراجع نفسه مرات ومرات ولا يتركها للأهواء والعواطف ، ذلك أن الذي يعتبر نفسه مالكاً لحق الحكمة الثورية هو في الحقيقة ممارس لنفس السلوك القديم ، وكذلك فان من يتصدى لامر تحرير الجماهير ولا يستطيع أن يتفاعل معهم متهماً اياهم بالجهل هو في الحقيقة مخادع لنفسه فاذا ظل المتحول من طبقة القاهرين الى طبقة المقهورين متوجساً من كل خطوة يخطوها المقهورون أو اقتراح يقدمونه فهو في الحقيقة مخلص لسلوك طبقته القديمة أكثر من اخلاصه للطبقة المقهورة ذلك أن التحول الى الجماهير يقتضي

مخاضاً جديداً والذين يولدون في هذا المخاض لا بد أن يسلكوا سلوكاً مغايراً لأنه من غير المعقول أن يظلوا محتفظين بقيمهم القديمة ، وهكذا فإن السبيل الوحيد لفهم خصائص حياة المقهورين وسلوكهم هو مزاملتهم والاندماج معهم ولا يعني ذلك أن المقهورين يخلون من مثل هذا التناقض فهم في كثير من الأحيان يمارسون نوعاً من الازدواجية وذلك حين يحسون القهر ثم يبررونه بالصورة التي جسدوها في داخل أنفسهم لحقيقة قهرهم . انهم يحكمون على أنفسهم حكماً قاسياً حتى تتجلى لهم حقيقة القهر ظاهرة ، ففي هذه المرحلة يبدأون في تملك الشجاعة التي تنفي عنهم الاتكالية وتجعلهم يعتمدون على أنفسهم،وبدون هذا الاحساس فسيظلون معتمدين على رؤسائهم قائلين لهم ماذا نفعل ؟ اننا مجرد فلاحين .

وعندما نحاول تحليل تلك القدرية التي يتميز بها المقهورون فسنجد أن لها جذوراً اجتماعية وتاريخية فهي غالباً ما تقترن عندهم بالحظ أو المصير الذي هو من صنع الله ولا يد للانسان فيه فمن خلال ممارسة المقهورين للسحر والأساطير يصل الفلاحون الى قناعة مؤداها أن كل ما يلحق بهم من عناء واستبداد هو من مشيئة الله وكأن الله هو سبب هذه الفوضى المنظمة ، فالمقهورون بانغماسهم في حقائق الحياة وامتثالهم لحقيقة القهر المستبطنة داخلهم لا يتأتى لهم ادراك حقائق الوضع المزرى الذي يعيشون فيه ، فبدلاً من أن يتوجهوا بالعنف نحو الواقع الذي يعيشون فيه ، تجدهم يحولون هذا العنف الى زملائهم من أجل أتفه الاسباب .

يقول « فرانز فانون » في كتابه « معذبو الارض » « ان المُستعمَر ينفس عن الظلم المتراكم في عظامه أول مرة في ابناء طينته ، ففي هذه المرحلة يبدأ الزنوج في ضرب بعضهم بعضاً ، وفي هذه المرحلة لا يعرف البوليس أو القضاة في شمال أفريقيا الوجهة التي يتجهون اليها ، ففي الوقت الذي يضرب فيه المقيم أو رجل البوليس المواطن حتى يجعله يجثو على قدميه فان هذا المواطن تجده لا يستل سكينه أو يثأر لنفسه الا من أول بادرة تبدر من أحد مواطنيه ولعله بانتقامه من مواطنه يحتفظ لنفسه بآخر الخيوط التي تتعلق بها شخصيته »

ومن الجائز أن المقهورين يتعرضون لزملائهم المواطنين لأنهم يعرفون أنهم

يستبطنون في دخيلات أنفسهم شخصيات قاهريهم ، فكأنهم بذلك يقومون بطريقة غير مباشرة بمهاجمة القاهرين ، واذا نظرنا الى الأمر من جانب آخر فسنجد أن المقهور في فترة ما خلال حياته يحس برغبة جارفة في تمثل حياة قاهره وبذلك يشعر برغبة في أن يعيش على طريقة القاهرين وتصبح أساليبهم مطمحاً من المطامح التي يرنو اليها ، وفي هذه المرحلة يبذل المقهور كل ما في وسعه من أجل أن يعيش بأسلوب قاهره فتجده يجنح الى تقليده والسير على نهجه،وتبدو هذه الظاهرة بصورة خاصة في الطبقة الوسطى من طبقات المقهورين حيث يكثر التطلع الى المساواة مع أفراد الطبقة العالية .

يشير « البرت ميمي » في تحليله الرائع للعقلية المستعمرة في كتابه « المستعمرون والمُستَعمَرون . . الى مدى الامتعاض الممزوج بالانجذاب العاطفي نحو المستعمرين يقول :

« كيف يمكن للمُستَعمِر أن يعتني بعماله اذا كان من وقت لآخر يستخدم بندقيته ضد جمع من المستعمرين وكيف للمستَعمَر أن يتجاهل هذا الواقع ليبالغ في مطالبه . كيف يجمع المستعمَر بين كراهيته للمستعمِر واعجابه العاطفي به ـ لقد شعرت نفسي بهذا النوع من الاعجاب ـ »

كذلك فان من خصائص شخصية المقهور تحقير الشعور الذاتي . ولقد استمد المقهورون هذه الحقيقة من استبطانهم لاراء القاهرين المتأصلة في نفوسهم فكثيراً ما يسمعون عن أنفسهم أنهم لا يصلحون لشيء ولا يعلمون شيئاً ، وليس لديهم الاستعداد لتعلم أي شيء وانهم كسالى ومرضى وغير منتجين ولكثرة ما تردد هذه الأقوال في مسامعهم يقتنعون بها ويفقدون ـ بالتالي ـ الثقة في أنفسهم والأغرب انهم يزدادون ثقة بقاهريهم الذين يمثلون في نظرهم المعرفة والقدرة على تسيير الأمور ، فالمعرفة عند هؤلاء تستقي من المعلم ولا يثقون في أي معرفة قد خبروها من هذا العالم الذي يعيشون فيه أو من علاقتهم مع الآخرين ، فهؤلاء الرجال لا يتصورون أنهم يعرفون شيئاً ، ولعل ذلك تصرف طبيعي من رجال يمارسون الازدواج .

وبناء على ذلك فليس من النادر أن تجد الفلاحين يناقشون أمراً ما مع معلمهم في منتهى الحيوية ثم تجدهم فجأة يقفون ليقولوا معذرة : يجب علينا أن نصمت لتتكلم أنت ، فأنت الذي تعلم أما نحن فلا نعرف شيئاً ، فهؤلاء الفلاحون يصرون على ألا فرق بينهم وبين البهائم واذا اعترفوا بوجود فرق فانه لصالح البهائم لكونها تمتلك قدراً من الحرية ، غير أن هذا النوع من تحقير الذات يأخذ في التلاشي عند أول مرحلة من مراحل ازالة القهر ، فلقد سمعت فلاحاً يقول في اجتماع الوحدة الانتاجية .

« لقد تعودوا أن يقولوا اننا غير منتجين لأننا كسالى ، وتلك أكاذيب ، أما الآن وقد احترمنا كرجال فسيعلم الجميع بأننا لم نكن سكارى ولا كسالى بل كنا مستغلين »

وهكذا فانه ما ظلت الازدواجية قائمة فان المقهورين لن يكونوا في موقف يمكنهم من المقاومة لأنهم في مثل هذا الموقف يفتقدون الثقة اللازمة في أنفسهم ويعوضون عنها بايمان جازم بقوة القاهرين .

لقد حدثني واحد من أصدقائي ممن تخصصوا في علم الاجتماع أن جماعة من الفلاحين المسلحين في أحد أرياف أمريكا اللاتينية قد قرروا لأسباب تكتيكية أن يحتفظوا بصاحب الأرض رهينة عندهم ، ولكن أحداً منهم لم تواته الشجاعة ليخفره ، فقد كان مجرد وجوده بينهم مخيفاً بالنسبة لهم جميعاً . ولعل مجرد الاحساس بمواجهة الرئيس قد أثار عندهم احساساً بالذنب ولا تفسير لذلك سوى أنهم كانوا جميعاً يستبطنون صورة الرئيس القاهر في دخيلات أنفسهم .

وهنا يبدو ضرورياً أن يرى المقهورون صوراً من تصدع شخصيات القاهرين حتى يقتنعوا بامكان ذلك في حالتهم ، وما لم يتحقق ذلك فانهم سيظلون خائفين ومهزومين (انظر كتاب ديزلي:ثورة في الثورة) . وما ظل المقهورون على غير وعي بأسباب قهرهم فسيظلون على قدريتهم في قبول واقعهم ، بل لعلهم قد يقفون موقفاً سلبياً حين يواجهون بضرورة النضال من أجل تحقيق حريتهم أو تأكيد

ذواتهم ، حقا فانهم سيمارسون شيئا فشيئا نوعا من العصيان غير أنه في خلال النضال من أجل الحريه يجب الا يصرف الانسان نظره عن مثل ذلك السلوك السلبي ، والا يتعجل ساعة اليقظة ، فالمقهورون في تصورهم الحقيقي للعالم يشعرون بأنهم مجرد اشياء يمتلكها القاهرون ، أما بالنسبة للقاهرين فان وجودهم يرتبط دائماً بغريزة الامتلاك ، حتى لو كان هذا الامتلاك على حساب أولئك المعدمين ، وبالنسبة للمقهورين فانهم لا يطمحون في هذه المرحلة بأن يكونوا مثل القاهرين بل جل ما يطمحون اليه هو أن يكونوا تحت رحمتهم يعتمدون عليهم اعتماداً كلياً .

وهكذا يتضح لنا أن اعتماد الفلاح على غيره مبني على عدم وعيه فهو يمارس معاناة شديدة قبل أن يكتشف اعتماده على غيره ، وكرد فعل لذلك فهو ينفس عن نفسه في منزله بالصباح في أطفاله وضربهم وينفس عن يأسه بالشكوى من زوجته ويبدو كل شيء في هذه المرحلة بالنسبة اليه مفزعاً وهو لا يستطيع أن ينفس عن نفسه امام قاهره لأنه يراه كائناً متفوقاً ، فاذا لم يجد متنفساً لجأ الى الخمر مداراة لأحزانه . ويقود هذا الضرب من الاعتماد العاطفي الكلي الذي يمارسه المقهورون الى ما يسميه « فروم » السلوك الانتحاري وهو سلوك يؤدي الى تدمير حياة المقهور أو حياة زملائه في القهر .

وبمجرد أن يبدأ المقهور الاحساس بذاته يبدأ في نزع صورة القاهر من داخله ليمارس النضال المنظم من أجل تحقيق حريته ، ولكي يحقق هذا النضال غايته ، فينبغي الا ينتهي عند حدود العقل وحده اذ لا بد أن يصاحب الاكتشاف العقلي عمل فعال يتجاوز حدود الحماس .

وهنا لا بد أن تنظم مراحل العمل النضالي من أجل الحرية نزعة من الحوار الانتقادي بين فصائل المقهورين ويختلف نوع الحوار بحسب المرحلة التاريخية وحسب مستوى المقهورين في رؤية الواقع ، أما أن تحل الذاتية والشعارات والبيانات مكان الحوار فان ذلك يعني محاولة تحقيق الحرية بوسائل التدجين وذلك ما لا سبيل اليه لأن أي محاولة للتحرير لا يشارك فيها المقهورون مشاركة فعالة تعني

أنهم ما يزالون يعاملون كمجرد أشياء يستهدف المخلصون اخراجها من مبنى محترق ، وليس من نتيجة لهذه العملية سوى قيادة المقهورين الى حفرة الحزبية الجماعية التي تحولهم الى جماعات مستغلة .

واستناداً على ذلك فيجب أن يرى المقهورون أنفسهم في جميع مراحل النضال كرجال مشغولين في عمل تاريخي يحقق لهم انسانيتهم . وتصبح الرؤية والعمل الزاماً عندما لا يحاول أحد عن طريق الخطأ أن يوحد بين مضمون الانسانية وصورها التاريخية ، فالقول بضرورة أن يكون المقهور رؤية حقيقية عن حقيقة وضعه لا يعني دعوة للثورة عن طريق المقاعد الوثيرة ، وانما يعني أن العمل لا يمكن أن يحقق مغزاه الا اذا انطلق من رؤية واضحة ، وبدون ذلك يصبح مجرد ضرب من الحماس . ومن أجل أن ينجز هذا العمل العظيم فلا بد من الثقة في قدرة المقهورين على استخدام عقولهم ، ومن يعجز عن رؤية هذه الحقيقة سيعجز بالضرورة عن اجراء الحوار والاتصال وسيقع بلا شك في دوامة اطلاق الشعارات والبيانات والتعليمات ، وهكذا فان المعتنقين السطحيين لقضايا المقهورين يصابون بالفشل عندما يقعون في مثل هذه المزالق التي لا سبب لها سوى فقدان الثقة والحوار مع الجماهير ، فالعمل السياسي الى جانب المقهورين لا بد أن يكتسب صفته التعليمية ولا بد ـ كذلك ـ أن يتصف بالمشاركة القائمة على الثقة ، وفي نفس الوقت يجب على الذين يناضلون من أجل الحرية الا يأبهوا للاعتماد العاطفي من جانب المقهورين ، فقد تعود المقهورون على هذا النوع من الاتكالية من خلال ظروف القهر التي عايشوها ولكن العمل من أجل الحرية لا يعترف بهذا اللون من الخنوع بل يعتبره نقطة ضعف لا بد من ازالتها عن طريق العمل والوعي ليصبح كل فرد من المقهورين مستقلاً في ارادته ، وعلينا أن نعترف بأن هذه هي مهمة المقهورين في المقام الأول لانه ليست هنالك قيادة مهما بلغ حسن نيتها تستطيع أن تعطي هذا الاستقلال كمنحة من جانبها للمقهورين ، فتحرير المقهورين هو تحرير للرجال وليس تحريراً للاشياء . وينبني على ذلك أن الذي لا يستطيع أن يحرر نفسه بنفسه فلن يستطيع أحد غيره أن يحرره ، فالتحرير كظاهرة انسانية لا يمكن أن يتحقق بأشباه الرجال ولذلك فان اي محاولة لمعاملة الرجال كأشباه رجال هي تقليل في درجة انسانيتهم بل

هي مزيد من التعاسة لهم لان الذي يقلل من قيمة الرجال في عملية التحرير انما يستعيد نفس ظروف القهر القديمة . لذلك فمن الخطأ أن تعتمد القيادة الثورية في عملية التحرير على أسلوب الشعارات،ومن الخطأ أن تحشو عقول المقهورين باعتقادات في الحرية مؤملة ان تكسب بذلك ثقتهم ، فالطريقة الصحيحة للتعامل مع المقهورين هي طريقة الحوار،ذلك أن قناعة المقهورين بالنضال من أجل اكتساب حريتهم ليست منحة تسبغها عليهم القيادة الثورية بل هي نتيجة حوار داخلي ولد مثل هذه القناعة لديهم . ومن واجب القيادة الثورية أن تعلم أن مثل هذه القناعة لا تغلف كي تباع وانما يتوصل اليها المقهورون عن طريق الوعي والعمل وقد توصلت القيادة نفسها الى مثل هذه القناعة عندما أدركت واقعها من خلال موقف تاريخي وجدت نفسها في داخله وامتلكت القدرة على نقده وتمنت أن تصححه . كذلك فمن حق المقهورين أن يصلوا الى نفس القناعة من خلال ممارسة دورهم كرجال وليس من خلال واقعهم كأشياء ، اذ لا بد لهؤلاء من أن يمتلكوا القدرة على نقد الواقع الذي يعيشون فيه ، فالشعارات وحدها لا تكفي لتحقيق هذه الغاية . ولما كانت القناعة ضرورية من أجل القيادة الثورية فانها أيضاً ضرورية من أجل المقهورين لان غيرهم لا يستطيعون القيام بالدور المناط بهم . وعند هذه المرحلة يتضح أن كل ما ذهبت اليه لم يكن سوى دفاع عن المنحى التعليمي للثورة ذلك أن جميع الثوريين الذي آمنوا بحق المقهورين في التحرير آمنوا في نفس الوقت بحقهم التعليمي في النضال ، ولا ينفي ذلك أن بعض هؤلاء قد مارسوا مع المقهورين نفس الأسلوب التعليمي الذي مارسه القاهرون وذلك بانكارهم التجربة التعليمية من خلال العمل واعتمادهم على ثورة الشعارات ولكن من المحتم أن يعلم المقهورون أنه منذ اللحظة التي قبلوا فيها تحمل مسئولية النضال من أجل استعادة انسانيتهم قد وطنوا أنفسهم على أن يحملوا المسئولية كاملة على عواتقهم ، ذلك أن نضالهم لا ينتهي فقط عند تحرير أنفسهم من غائلة الجوع ، وكما يقول « فروم » في « قلب الانسان »

« ان الحرية هي من أجل الخلق والبناء ومن أجل الحركة والمغامرة وهذا النوع من الحرية يتطلب أن يكون الانسان نشطاً ومسئولاً والا يكون مجرد عبد أو ثور في محراث أحسن اطعامه ولكي تتحقق متطلبات الحياة فلا يكفي أن يكون الانسان عبداً

ذلك أن الانسان الذي يمارس حياته بارادة مسلوبة وكأنه آلة يفضل الموت على الحياة »

واستناداً على ما ذكرناه فان المقهور الذي أحيط بكل عوامل الموت أثناء القهر لا بد ان يتجدد امله بالانسانية والحياة من خلال النضال ولا يتم ذلك بأن يوفر لنفسه مزيداً من الطعام رغم أهمية الطعام بالنسبة له ـ وانما بأن يتجاوز تلك الظروف التي جردته من انسانيته وحولته الى مجرد شيء ، وليس في مقدوره أن يفعل ذلك الا بأن يناضل كرجل من الرجال .

ويبدأ النضال عندما يعي الرجال أنهم قد خضعوا لعملية تحطيم انساني ولكن كما اسلفنا ، فان النضال لا يكون بالشعارات أو الانظمة أو الاستغلال فهذه كلها من أدوات السيطرة ولا يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها من أدوات النضال واستعادة انسانية الانسان،ذلك أن الوسيلة الوحيدة الناجعة لتحقيق الحرية هي التعليم ذو الصبغة الانسانية الذي تقيم فيه القيادة الثورية نوعاً من الحوار الدائم مع المقهورين . فمن خلال هذا الحوار لا يمكن أن تكون طريقة التعليم وسيلة يسيطر بها الاساتذة ـ أي القيادة الثورية ـ على التلاميذ ـ أي المقهورين ـ لان هذه الطريقة تعبر عن ضمير المتعلمين أنفسهم .

ونستخلص من ذلك أن على القيادة الثورية أن تمارس نوعاً من التعليم يقوم على المشاركة التامة بين القيادة والجماهير وأن تغذي هذه المشاركة بالتجربة العملية والا تكتفي بمجرد تعرية الواقع فهذه هي الوسيلة الوحيدة لنقد الواقع من أجل اعادة تشكيله وهي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها المقهورون اعادة تشكيل واقعهم بطريقة فعالة .

الفصل الثاني

مفهوم التعليم البنكي ومفهوم التعليم الحواري

يكشف التحليل الموضوعي لعلاقة المعلم والطالب القائمة داخل المدرسة وخارجها عن أسلوب التواصل بينهما وهو أسلوب يعتمد على وجود حاك يقوم بدوره المعلم ومستمع يقوم بدوره الطالب، وسواء كان الموضوع قيماً عامة أو ابعاداً عقلية مستمدة من الواقع فانه يظل فاقداً للحياة وتلك هي أزمة التعليم .

يتحدث المعلم عن الواقع وكأنه موات لا حياة فيه أو كأنه متوقف ومحصور وقابل للاستنتاج وبذلك يبدو الموضوع غريباً على خبرة التلاميذ وتنتهي مهمة المدرس في هذه العلاقة عند ملء عقول التلاميذ بمحتوى قصته وهو محتوى مبتسر لا يستثير اهتمام أولئك الذين أريد لهم أن يتعاملوا معه ، ذلك أن الكلمات قد أفرغت من محتواها وجوفت لتصبح في النهاية مثاراً للاغراب .

ان اهم ما يميز التعليم التلقيني هي لهجته المتعالية وعدم قدرته على احداث التغيير . ٤ × ٤ = ١٦،عاصمة كذا . . كذا ، اما الطلاب فينحصر دورهم في الحفظ والتذكر واعادة الجمل التي سمعوها دون ان يتعمقوا مضمونها ، وليس من هدف لهذا التعليم التلقيني سوى تعويد الطلاب أسلوب التذكر الميكانيكي لمحتوى الدرس وتحويلهم الى آنية فارغة يصب فيها المعلم كلماته الجوفاء . وما ظل المعلم قادراً على القيام بهذه المهمة كان ذلك دليلاً على كفاءته وما ظلت الأواني قادرة على الامتلاء كان ذلك دليلاً على امتياز الطلاب.وهكذا أصبح التعليم ضرباً من الايداع تحول الطلاب فيه الى بنوك يقوم الاساتذة فيها بدور المودعين ، فلم يعد الاستاذ وسيلة من وسائل المعرفة والاتصال بل أصبح مصدر بيانات ومودع معلومات ينتظره الطلاب في صبر ليستذكروا ما يقوله ثم يعيدوه ، ذلك هو المفهوم البنكي للتعليم الذي تحدد فيه دور الطالب كمستقبل للمعلومات يملأ بها رأسه ويخزنها دون وعي ،

ولا شك أن هناك من ينجح بهذه الوسيلة في أن يصبح جامعاً للمعلومات أو كتالوجاً لها ولكن تبقى الحقيقة العارية وهي أن الـذي خزن بالفعل ليست هي المعلومات وانما هو عقل الانسان الذي حرم بهذا الاسلوب غير الموفق في التعليم من فرص الابداع والتطوير ، اذ كيف يمكن للانسان أن يمارس وجوده الحق دون أن يتساءل ودون أن يعمل ؟

ليس ذلك بالطبع ممكناً ، لأن المعرفة الحقة انما تنبثق من الابداع الذي هو وليد القلق المستمر ، وبالتالي فلا يستطيع الانسان أن يجيب عن تساؤلاته الا اذا اتصل بهذا العالم وعمل فيه مشاركاً مع غيره من الرجال . ويتضح من مفهوم التعليم البنكي أن التعليم مجرد منحة يتفضل بها اولئك الذين يعتبرون أنفسهم مالكين للمعرفة على أولئك الذين يفترضون انهم لا يعرفونها ، غير أن اضفاء الجهل على الآخرين هو في حقيقته من مخلفات فلسفة القهر التي تجرد التعليم والمعرفة كليهما من خاصيتها كعمليتي, بحث مستمر من أجل اكتساب الحرية ، وفي اطار التعليم البنكي يقدم المدرس نفسه للتلاميذ على أنه الصورة المضادة لهم وهو باضفائه صفة الجهل عليهم يبرر وجوده كأستاذ لهم ، وعند هذه المرحلة يتم تغريب التلاميذ واستعبادهم وبحسب المنظور الهيجلي للديالكتيك فان اعتراف التلاميذ بجهلهم هو أيضاً تبرير لوجود الاستاذ بينهم ، وعلى غير ما يكون العبيد فان هؤلاء التلاميذ لا يكتشفون مطلقاً أنهم يعلمون الأستاذ.وفي ضوء ما ذكرناه يتبين لنا أن التعليم الحق هو ذلك الذي يعمد الى حل التناقض القائم بين الأستاذ وتلميذه ويعمد الى ايجاد نوع من المصالحة يصبح الطرفان فيها أساتذة وطلابا في نفس الوقت . ومثل هذا الحل غير موجود في المفهوم البنكي الذي هو في جوهره تأكيد لطبيعة التناقض القائم والتي تجسدها المفاهيم التالية والتي هي في حقيقتها انعكاس لمجتمع القهر .

١ ـ الاستاذ يعلم والطلبة يتلقون
٢ ـ الاستاذ يعرف كل شيء والطلاب لا يعرفون
٣ ـ الأستاذ يفكر والطالب لا يفكر
٤ ـ الاستاذ يتكلم والطالب يستمع

٥ ـ الاستاذ ينظم والطالب لا ينظم
٦ ـ الاستاذ يختار ويفرض اختياره والطالب يذعن
٧ ـ الاستاذ يتصرف والطالب يعيش في وهم التصرف من خلال عمل الاستاذ .
٨ ـ الاستاذ يختار البرنامج والمحتوى والطالب يتأقلم مع الاختيار
٩ ـ الاستاذ يربك المعرفة ويتدخل فيها ويحول دون الطلاب ودون ممارستهم حرياتهم .
١٠ ـ الأستاذ هو قوام العملية التعليمية والطالب نتيجتها

وفي ضوء ذلك فليس من المستغرب أن يعتبر المفهوم البنكي الرجال كائنات متأقلمة وسهلة القياد ، والحقيقة هي أنه كلما تأكدت حقيقة أن الطلاب مجرد مخازن للمعلومات كلما قل وعيهم بالعالم المناط بهم تغييره ، فقبولهم لهذا الدور السلبي المفروض عليهم يعني بالضرورة تأقلمهم المستمر مع الواقع المفروض عليهم والمعرفة المبتسرة التي أريد لها أن تملأ عقولهم،ومن هنا يتضح أن مهمة التعليم البنكي تتركز في تقليل القدرة الابداعية عند الطلاب أو الغائها تماما من أجل خدمة أغراض القاهرين الذين لا يرغبون في أن يصبح العالم مكشوفاً لهؤلاء أو أن يصبح موضوعاً للتغيير،فالقاهرون يتصرفون بغرائزهم ضد أي محاولة في التعليم تستهدف تنمية الملكة النقدية وترفض النظرة الجزئية لحقائق العالم . وتجدهم في ذلك لا يحفلون بالمواقف بل يحفلون بالانسان الذي يريدون له أن يتأقلم مع ظروف القهر وبالتالي مع السيطرة والاستغلال ، لاجل ذلك يشجع القاهرون مفهوم التعليم البنكي ويفرضون سيطرة أبوية على النظام الاجتماعي الذي يتلقى فيه المقهور تعليمه ، فهم يعتبرون أمثال هؤلاء المقهورين حالات فردية أو رجالاً هامشيين لا يحق لهم التمتع بمزايا الصلاح والنظام والعدل الاجتماعي.فهؤلاء الرجال في نظرهم هم الجزء المريض في جسم المجتمع صحيح البنيان ويحتم واجبهم أن يتحملوا مسئولية عدم الكفاءة والكسل حتى يؤقلموا أنفسهم ويغيروا من عقلياتهم ليصبحوا جزءاً مندمجاً في جسم المجتمع الذي اخطأوه ، ولكن الحقيقة التي تؤكد نفسها هي أن المقهورين ليسوا رجالاً هامشيين أو رجالاً يعيشون خارج حدود المجتمع الصحي ، فهم كانوا كذلك عندما مورس ضدهم الاستغلال في المجتمع الذي حولهم الى مجرد أشياء .

وهكذا فان الحل لا يكمن في أن يدمج هؤلاء في تركيبة مجتمع القهر بل يكمن في تغيير هذه التركيبة ليمتلك هؤلاء الرجال أقدار أنفسهم ، ولا يخفى أن مثل هذا التغيير يدحض أهداف القاهرين ، ولذلك فأنت تجدهم يستميتون من أجل فرض نظام التعليم البنكي الذي يبقى الواقع كما هو عليه .

وهكذا فان المنطلق البنكي في تعليم الكبار لا يطرح مطلقاً أمام الدارسين حقائق العالم من وجهة نظر نقدية بل يركز على أشياء من هذا القبيل .

هل أعطى « روجر » الحشيش للمعزة ؟

ويصر القاهرون على ضرورة تعليم مثل هذا السؤال او غيره نحو « روجر أعطى الحشيش الأخضر للأرنب » .

ويبدو من ذلك أن المنطق البنكي يكرس استغلال الانسان وبالتالي يحول دون ممارسته لانسانيته الكاملة .

وهكذا فان أولئك الذين يمارسون التعليم البنكي سواء عن قصد أو غير قصد يفشلون في رؤية التناقض الذي يودعونه عقول الطلاب ، غير أن هذه التناقضات عاجلاً أو آجلاً هي التي ستقود الطلاب للانقلاب ضد هذا الأسلوب الذي لا يستهدف سوى تدجينهم ، فهم في علاقتهم مع الواقع يدركون أن الواقع عملية حركية مستمرة تتخذ طريقها نحو التغيير المتصل وذلك ما يجعلهم يحسون بالتناقض مع ما تعلموه ، وعندئذ يدركون أن ما تعلموه لم يستهدف شيئاً سوى شغلهم عن النضال من أجل تحقيق حريتهم .

أما المعلم الانساني الثوري ، فعلى العكس من ذلك فانه لا يصل بالمتعلمين الى هذا المستوى لأن أهدافه منذ البداية تتفق مع أهداف التلاميذ الذين يرغبون في شغل أنفسهم بالتفكير النقدي الذي يحقق لهم انسانيتهم ، فهذا المعلم يثق ثقة عظيمة بالرجال وقدراتهم في الابداع ، لذلك فلا تجده يقوم بدور المتسلط بل يقوم بدور المشارك مع تلاميذه ، وهذا اتجاه لا يعترف به المفهوم البنكي للتعليم ، وهكذا

فان السبيل الوحيد من اجل حل التناقض في علاقة المدرس والتلميذ المتمثلة في كون المدرس مودعاً ومنشئاً ومدجناً هو القضاء على حقيقة القهر من أجل خدمة أهداف الحرية .

ويمكننا أن نقول ان نظام التعليم البنكي بما يشتمل عليه ـ ينطلق ضمنياً ـ من افتراض بوحدة العالم والانسان ، فالانسان في نظر دعاة هذا النوع من التعليم يوجد داخل العالم وليس معه كما يوجد ضمن الآخرين وليس معهم وفي نظر هؤلاء فان الانسان مجرد مشاهد غير قادر على ابداع دوره، وفي هذا السياق لا يكون الانسان ضميراً يحس بهذا العالم بل هو عقل فارغ مفتوح لتلقي ما يودع فيه . ويتبع ذلك منطقياً أن دور المعلم يكمن في صب المعرفة في داخل عقل التلميذ من أجل ملئه بمودعات يعتقد أنها تمثل المعرفة الحقيقية. وما ظل الرجال يتعاملون مع العالم بهذه الطريقة السلبية فان هذا النوع من التعليم يزيد في سلبيتهم ويجعلهم أكثر تأقلماً مع الواقع الذي يعيشون فيه ، فالانسان المتعلم حسب هذا المفهوم هو الانسان المتأقلم وهو بذلك أكثر صلاحاً من غيره لملاءمة مجتمع القهر واذا ما ترجمنا هذا المفهوم ترجمة واقعية ادركنا أنه يتناسب جداً مع أهداف القاهرين الذين تتركز اهتماماتهم في ضرورة تأقلم الرجال مع العالم الذي صنعوه لهم والذي لا يعرفون له بديلاً ، فبقدر ما تتأقلم الأغلبية مع الأغراض التي حددتها لهمُ الأقلية المسيطرة بقدر ما تكون الأقلية قادرة على الاستمرار في لعب دورها المرسوم ، وهكذا فان النظرية وتطبيقاتها في مفهوم التعليم البنكي تخدم هذه الغاية بكفاءة تامة، وكذلك فان الدروس القولية والقراءة المطلوبة وطرق تحصيل المعرفة والمسافة بين التعليم والمتعلم وأسس ترقية الطلاب وكل التفصيلات الجاهزة تخدم هدفاً واحداً هو تحييد قدرة الطلاب على التفكير .

أما موظف البنك التعليمي فهو بالضرورة لا يعي أن هذا اللون المتخم من التعليم غير مضمون النتائج لأن الانسان بطبعه ميال للعيش في تماسك مع الآخرين ، فالمدرس في الظروف الطبيعية لا يستطيع أن يفكر للتلميذ ولا يستطيع أن يفرض تفكيره عليه ، ذلك أن التفكير الذي يتعلق بالحياة لا يمكن أن يتم في برج

عاجي أو في عزلة وانما يتم دائماً بين الجماهير حيث الاتصال فيما بينها واذا كنا نؤمن بأن التفكير الحق هو وحده الذي يقترن بالعمل المتصل بهذا العالم فان اخضاع التلاميذ لأساتذتهم يصبح من المحال ، ولأن التعليم البنكي يبدأ بفهم خاطىء حيث يستهدف تحويل الرجال الى أشياء فانه يعجز عن تحقيق ما يسميه « فروم » في قلب الانسان « الرغبة في الحياة » وبدلاً من ذلك فانه يحقق ما يسمى بالرغبة في الموت .

يقول « فروم » .

« في حين أن الحياة تتميز بنموها الوظيفي فان الانسان الفاقد لحيويته ينجذب نحو كل الأشياء غير النامية أو الأشياء ذات الطبيعة الميكانيكية ، فالانسان النمطي يرغب في تحويل كل ظاهرة عضوية الى ظاهرة غير عضوية لتصبح الحياة في شكلها الميكانيكي وكأن الأحياء مجرد أشياء،فهو يريد للانسان أن يتميز بالذاكرة لا بالخبرة وبالامتلاك لا الوجود وهو لا يشعر بما سواه سواء كان زهرة أو انسانا الا اذاامتلكه، وحينئذ يصبح كل تهديد يلحقه فيما امتلكه تهديداً موجهاً الى شخصه فهو ان لم يمتلك فقد اتصاله بالعالم الذي يعيش فيه ومثل هذا الانسان النمطي يعشق التحكم في غيره ولا يعلم أن بذلك يقتل نفسه في عملية التسلط هذه »

ويبدو من ذلك ان القهر والسيطرة يؤديان بالضرورة الى القتل ، ذلك أنهما يستمدان وجودهما من حب الموت وليس حب الحياة ، وهكذا فان المفهوم البنكي للتعليم والذي يخدم ظروف القهر هو مميت بالضرورة لأن اعتماده على (الآلية) والجمود والتحييد يحول الطلاب الى أوعية للاستقبال وبذلك تتم السيطرة على التفكير والرغبة في العمل وتتم في نفس الوقت أقلمة الانسان الى ظروف القهر وتعطيل طاقاته المبدعة . وعندما تعاق قدرة الانسان على الحركة ويجد نفسه غير قادر على ممارسة ملكاته يبدأ احساسه بالشقاء وهذا الاحساس هو وليد الخلل الذي حدث في طبيعة التوازن الانساني .

يقول فروم :

« غير أن احساس الانسان بعدم قدرته على الحركة وان كان يسبب له ضيقاً فانه في ذات الوقت يدفعه الى الرفض ومحاولة الانقلاب »

ولكن هل يستطيع ذلك وكيف ؟

يبدأ المرء بتمييز نفسه عن اولئك الذين يمتلكون القوة،وبمجرد أن يحس المقهور نفسه من خلال الشخصيات الجذابة للقادة يبدأ في الشعور بأنه يمتلك نفس الحيوية والفعالية ، وهكذا فان الانقلاب الذي يعبر عنه المقهورون في العملية التاريخية انما هو في حقيقة أمره تعبير عن رغبتهم في العمل الايجابي أما الصفوة المسيطرة فانها تعتبر العلاج مزيداً من السيطرة باسم الحرية والنظام والسلام الاجتماعي فهم يدينون من وجهة نظرهم كل ما يتجه اليه المقهورون من استخدام للعنف واضرابات عمالية ويذهبون الى أبعد من ذلك حين يدعون الدولة الى استعمال العنف من أجل قمع الاضرابات .

ويؤكد ما قدمناه أن التعليم الاستغلالي لا يستهدف شيئاً سوى تطويع الطلاب بدافع فكري مرسوم كي يتأقلموا مع عالم القهر ، ولا نسوق هذا الاتهام بسذاجة من أجل أن تقلع طلقات الصفوة عن ممارستها ، وانما نسوقه كي نلفت انتباه الاشخاص ذوي النزعات الانسانية الحقة الى استحالة استخدامهم للتعليم البنكي في نضالهم من أجل الحرية،لأن التعليم البنكي يناقض في مفهومه مثل ذلك الهدف كما نلفت الانتباه الى خطأ أن يرث المجتمع الثوري هذا المفهوم من المجتمع القهري.وأما المجتمع الثوري الذي يطبق نظام التعليم البنكي فاما أن يكون مضللاً واما أن يكون قد فقد الثقة بالرجال وفي كلا الحالين فهو مهدد بالانقلاب عليه .

ومن المؤسف حقاً ان تجد اولئك الذين يناضلون من أجل الحرية محاطين دائماً بجو التعليم البنكي ولا يستطيعون أن يميزوا خطورته في استلاب انسانية الانسان بل من الغريب أن نجدهم يستخدمون نفس الوسيلة التي يستهدفون محاربتها . حقاً فان هنالك بعض الثوريين ينظرون الى من يعارض هذا النوع من التعليم على أنهم سذج أو حالمون أو رجعيون،ولكن الحقيقة هي أنهم لا يستطيعون تعليم الرجال

بتغريبهم فالحرية ليست شيئاً اضافياً يودع في عقول الرجال بل هي ممارسة أو استجابة واعية نحو العالم من أجل تغييره ، لذلك فان أولئك الذين يستهدفون تحرير الانسان حقاً لا يمكنهم أن يقبلوا المنهج الالي الذي يحول الانسان الى اناء يتوجب ملؤه ،كما لا يمكنهم أن يقبلوا المفهوم البنكي باسم الحرية . وهكذا فان المؤمنين حقاً بتحرير الانسان يرفضون دائماً المفهوم البنكي ويستعيضون عنه بمفهوم آخر يعترف باحساس الانسان تجاه العالم الذي يعيش فيه ، وأمام هؤلاء ان يقلعوا عن جعل التعليم وسيلة للايداع وان يجعلوه بدلاً من ذلك وسيلة لتسليط الأضواء على مشاكل الانسان مع هذا العالم الذي يعيشون فيه ، ذلك أن التعليم الذي يتناول قضايا الانسان الفعلية يرفض أسلوب البيانات ويستعيض عنها بأسلوب الحوار .

ومن هنا نعلم أن التعليم الذي يستهدف الحرية يركز على الادراك اكثر مما يركز على نقل المعلومات فمادة التعليم في هذه الحال تقف في وضع وسطي بين المعلم والتلميذ وبذلك تحل مشكلة التناقض بين التلميذ والمعلم ، فالعلاقة الحوارية التي تنشأ بينهما تساعدهما على الوعي بمادة التعليم وبذلك يصبح التعليم ممكناً.

وفي ضوء ذلك يتضح لنا أن التعليم الذي يعالج المشكلات هو وحده القادر على حل التناقضات التي تحول دون تحقيق الحرية ، ففي هذا النوع من التعليم ينتفي وجود مدرس الطالب وطالب المدرس ويحل مكان هذه العلاقة علاقة اخرى جديدة هي علاقة المدرس والطالب والطالب والمدرس معاً في حل المشكلات . ففي هذه العلاقة لن يصبح المدرس هو وحده الذي يدرس لأن المدرس في العلاقة الجديدة يتعلم أيضاً من خلال حواره مع الطلبة كما أن الطلبة لا يدرسون فقط بل انهم يُعلّمون أيضاً ويبدو من ذلك أن كلا الطلبة والمدرسين يشتركون في عملية نامية واحدة ، وفي ظل هذا الأسلوب فان السلطة تكون للحرية وليس لأية جهة اخرى . وفي ظله أيضاً لا يوجد واحد يدرس وآخر يتعلم وانما الجميع يتبادلون المعرفة حيث يتوسطهم العالم في هذه الممارسة ، وهكذا يختلف مفهوم هذا الاسلوب عن مفهوم التعليم البنكي الذي تظل المعرفة فيه وقفاً على الأستاذ وحده .

ويتبين لنا من خلال ملاحظتنا لأسلوب التعليم البنكي أن هذا التعليم يميز مرحلتين في حركة المعلم ، أولاً مرحلة استيعابه شيئاً حين يحضر الدرس وثانياً مرحلة القيام بالشرح حين يواجه الطلاب ولا يشترط في الطلبة بهذا الأسلوب ان يعرفوا الدرس بل المهم أن يتذكروه ويحفظوه ،ذلك أن الدرس هو في النهاية ملك خاص للاستاذ وليس موضوعاً يستثير الحاسة النقدية بين الطالب والأستاذ، وهكذا فباسم المحافظة على الثقافة والمعرفة نجد أنفسنا بازاء نظام يتنكر للثقافة والمعرفة ، وعلى عكس ذلك فان أسلوب طرح القضايا في التعليم لا يوجد عملية التعليم ولا يجعل منها عملية ذات طرفين أحدهما يتلقى والآخر يلقى بل يجعلها عملية تعلم مستمر، سواء كان المعلم في لحظة اعداد الدرس أو مشتركاً في الحوار مع تلاميذه ، فالمدرس في هذه الطريقة لا يتخذ من الموضوعات ملكاً خاصاً له بل يستخدمها للاشتراك في التبصر بها مع تلاميذه وبهذه الطريقة يمارس عملية اصلاح مستمرة مستمدة من رؤ ية ورؤ ية تلاميذه ، فدور التلاميذ هنا لا يقتصر على الاستماع فقط بل هم يشاركون بالنقد والبحث والحوار مع المدرس وبصورة ايجابية ، واذا عدنا نسأل عن دور المدرس وجدناه يتركز في تحضير المادة للطلبة للنظر فيها ، ومن خلال فحص الطلبة للمادة يبدأ هو نفسه اعادة النظر في موقفه السابق منها . أما دوره في طريقة عرض القضايا والمشكلات فيتلخص في مشاركة تلاميذه في تهيئة المناخ الملائم لعملية التعلم،ذلك في الوقت الذي يعوق فيه المنهج البنكي اطلاق مثل هذه القوى الابداعية للطلاب ، ففي الوقت الذي يهتم فيه منهج عرض المشكلات بتعرية الواقع وكشفه أمام الطلاب فان المنهج البنكي لا يستهدف سوى اضعاف الاحساس بالواقع .

وهكذا فالطلبة الذين يواجهون خلال عملية التعلم بسيل متصل من المشكلات الواقعية يشعرون بنوع من التحدي كما يشعرون بمسئوليتهم في مواجهة ذلك التحدي ، ومن هنا يبدأون عملية الاتصال بواقع حياتهم،فقدرتهم على مواجهة التحدي تبعث في نفوسهم مزيداً من الشعور لمواجهة تحديات جديدة بما يفتح أمامهم مزيداً من الفهم والالتزام ، وهكذا فان مفهوم التعليم كخبرة من أجل الحرية والذي يختلف عن مفهوم التعليم كوسيلة للسيطرة يرفض معاملة الانسان

كوجود شبحي منعزل عن هذا العالم الذي يعيش فيه كما يرفض الاعتراف بحقيقة وجود العالم بعيداً عن وعي الانسان به ، فالوعي بوجود العالم لا يسبق وجود الانسان ولا يتخلف عنه .

لقد حدث في احدى تجمعاتنا في « شيلي » أننا كنا نناقش المفهوم الانثربلوجي للثقافة ، وخلال ذلك وقف أحد الفلاحين الذي هو بحسب المفهوم البنكي يعتبر جاهلاً تماماً فقال: لقد عرفت الآن أنه بدون الرجال فليس هنالك عالم . وردَّ عليه المعلم على الفور دعنا لأجل الجدل نفترض أن كل الرجال في هذا العالم قد ماتوا ألا يبقى العالم بأشجاره وأطياره وحيواناته وأنهاره وبحاره ونجومه ؟ اليست هذه جميعاً هي العالم ؟ فأجاب الفلاح بثقة لا لأنه لن يوجد هنالك شخص يقول هذا هو العالم . لقد كان الفلاح يريد ان يقول ان عدم الاحساس بالعالم يعني عدم وجوده ذلك أن الانسان لا يمكن له أن يعيش دون أن يحس بوجوده وان لم يحس بوجوده فالعالم بالنسبة اليه غير موجود كما أنه هو نفسه غير موجود . . اذاً فالانسان يبدأ في تمييز الأشياء عندما يحس بها كما يقول « هوسرل » .

وهكذا ففي نظام التعليم عن طريق طرح المشكلات يبدأ الناس في تطوير ملكتهم النقدية من خلال طريقتهم في الحياة ومعطيات العالم الذي يعيشون فيه . انهم يبدأون في رؤ ية العالم ليس على أنه كتلة جامدة بل على أنه حركة متطورة ، وعلى الرغم من أن العلاقة الجدلية بين الانسان والعالم تظل مستقلة عن الكيفية التي يرى الانسان بها هذه العلاقة أو لا يراها ، فمن المؤ كد أن أسلوب الفعل الذي يتخذه الانسان في الحياة يعتمد الى حد كبير على نظرته الى العالم ، واستناداً على ذلك فان علاقة المعلم والطالب والطالب والمعلم تنعكس على كل منهما وعلى العالم دون عزل لهذا الانعكاس عن الواقع وينشأ بذلك ما نسميه الفكر والعمل . مرة أخرى فعندما يبدأ الصراع بين المنهج البنكي ومنهج طرح المشكلات يعمد المنهج الى تمويه الحقائق وحجب الكيفيات التي يعيش بها الناس في هذا العالم ، أما المنهج الآخر فيقوم بالدور المعاكس ، فبينما يرفض المنهج البنكى أسلوب الحوار فان منهج طرح المشكلات يعتبر الحوار أساساً من أجل فهم العالم ، وبينما يعامل المنهج

الطلبة كأشياء يطلبون المساعدة فان المنهج الآخر يهيئهم ليصبحوا نقاداً ومفكرين .

ويتضح من ذلك ان المنهج البنكي يعوق نزعة الابداع ويجنح الى التدجين من أجل أن يحول بين الانسان وممارسة حريته،وعلى العكس من ذلك فإن منهج طرح المشكلات يساعد على الابداع ويستفز نزعة الفهم والتبصر بحقائق الوجود.وبالتالي فانه يحقق انسانية الانسان لكونه يقوده نحو الابداع والتطوير وعلى وجه الاجمال فان المنهج البنكي وتطبيقاته يفشل في أن يعتبر البشر مخلوقات تاريخية ذلك في الوقت الذي يعتبر فيه منهج طرح المشكلات حقيقة أن الانسان كائن تاريخي نقطة البداية في أى تحرك .

وهنا يبدو أن منهج طرح المشكلات أساسه اعتبار الناس كائنات في مرحلة الصيرورة أي أنهم يمارسون وجوداً غير مكتمل وهذه ظاهرة تميز الانسان عن سائر الكائنات في مملكة الحيوان التي تملك بدورها وجوداً غير مكتمل ، فالكائنات في هذه المملكة لا تملك وجوداً تاريخياً لانها لا تعي كالانسان حقيقة عدم كمالها فالانسان يعترف بأنه كائن غير كامل وهذا ما يدعوه لأن يتخذ التعليم وسيلة من أجل تطوير نفسه ، وانطلاقاً من ذلك فان التعليم ما هو الا عملية اعادة صنع من أجل تحويل الكينونة الى صيرورة كما هو الحال في المفهوم « البرغسوني » ، أما الطريقة البنكية فتؤكد الكينونة فحسب ، ومن هنا يتضح أن نظام التعليم عن طريق طرح المشكلات لا يعترف بالحاضر المشرق ولا بالمستقبل المحدد سلفاً وانما يشغل نفسه بعملية ديناميكية تضرب جذورها في الحاضر وتتجه نحو المستقبل بثورية ، وهذا المنهج يتسم بالثورية والنبوءة المفعمة بالأمل،وذلك ما يطابق الحقيقة التاريخية للانسان ، فهو يعترف بحقيقة الوجود الانساني المتسامى والمتجه دوماً الى الأمام والذي يعتبر الجمود تهديداً له بالفناء وهو يعتبر النظر الى الماضي مجرد وسيلة يتفهم بها كيف ومن يبنى عالم المستقبل بحكمة ؟ وهكذا فان هذا المنهج انما يعرف الرجال المدركين لحقيقة عدم كمالهم نقطة البدء في حركتهم التاريخية والأهداف المناط بهم تحقيقها ، فنقطة البدء في هذه الحركة تكمن في داخل الرجال أنفسهم،وبما أن الرجال لا ينفصلون عن العالم والواقع فان الحركة لا بد لها أن تستمر في علاقة جدلية مع

العالم وبالتالي فلا بد للحركة ان تكون مع الرجال الذين هم هنا،والآن ، فالبدء من هذا الموقف يجعل الرجال يواجهون التحديات .

وبينما يؤكد الأسلوب البنكي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة قدرية المصير الانساني فان منهج طرح المشكلات يطرح هذه المشكلة باعتبارها قضية تستوجب حلاً وهكذا فعندما يعي الرجال أهدافهم تتلاشى رؤيتهم السابقة لتحل محلها رؤية واقعية للعالم ، فالوعي العميق بالموقف يؤدي بالرجال الى أن يتفهموا حقيقة المواقف التاريخية وقابليتها للتطوير . واستناداً على ذلك فان اي رجال يتدخلون من أجل ايقاف عملية البحث المتطورة هذه انما يقومون بنوع من العنف يستهدف صرف الناس عن اتخاذ قراراتهم بأنفسهم وبالتالي تحويلهم الى أشياء ، غير أنه من المحتم أن تسير حركة الرجال نحو تحقيق انسانية الانسان وذلك قدر تاريخي ، ومن هنا يبدو أن تحقيق الانسانية لا يمكن أن يكون عملاً فردياً يتم في عزلة وانما لا بد له أن يتم في اطار من الزمالة والتلاحم ولذلك فهو لا يغفل التناقض القائم بين حقيقة القاهرين والمقهورين ، فليس هنالك رجل يعتبر نفسه انساناً بينما يحرم الآخرين حقوقهم الانسانية ، كذلك فان محاولة الانسان أن يكون أكثر اكتساباً للحقوق الانسانية من غيره يزيد من أنانيته وهو ضرب من اللاانسانية وباختصار فان سطوة رجال ما يجب ألا تقف في وجه رجال آخرين تحول دونهم ودون تحقيق انسانيتهم .

وينبني على ذلك كله أن المنهج الذي يقوم على طرح المشكلات والذي يستهدف تحرير الرجال وتحقيق انسانيتهم يستوجب منهم أن يقاتلوا من أجل التحرر وهذا المنهج يمكن كلا الطلبة والاساتذة من عملية التعلم كما يمكنهم من تجاوز ظاهرة الاحتكار الثقافي ويمكن الرجال من تجاوز الخضوع للتصورات الكاذبة عن العالم . فالكلمة في هذا المنهج لا تفسر بكلمة كاذبة وانما هي وسيلة لتطوير الرجال من أجل تحقيق انسانيتهم وبذلك لا يستطيع القاهرون ان يستفيدوا من هذا النظام أو يستخدموه لتكريس القهر،ذلك أن نظام القهر لا يسمح للمتعلم بالتساؤل . أما في ظل النظام الثوري القائم على منهج طرح المشكلات فباستطاعة الانسان أن يتساءل ولا شك أن القادة سيستخدمون هذا الأسلوب قبل أن يسيطروا على السلطة لكونهم

لا يستطيعون خلال العملية الثورية تطبيق المنهج البنكي لأنه يحول دون المعلمين وممارسة الثورة ، ذلك أن الثورة تحتم على القادة استخدام أسلوب الحوار من البداية .

الفصل الثالث

برنامج التعليم الحواري

بعد أن بينا قيمة الحوار في المفهوم الانساني نعود لنكشف عن طبيعة الحوار في ذاتها ، فالحوار في نظري هو الكلمة ، والكلمة في مدلولها الحقيقي تتجاوز قيمتها كوسيلة يتحقق بها الحوار وذلك لما تتميز به من بعدي الرؤ ية والفعل ، فهذان البعدان متلازمان بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر .

وعلى وجه العموم فليس هنالك كلمة حقيقية غير قابلة للتنفيذ في واقع الحياة ، وذلك ما يميز الكلمة الصادقة بأنها هي القادرة على تغيير العالم ، أما حين تجرد الكلمة من أحد البعدين السابقين فانها تصبح عاجزة عن القيام بدورها وتتحول الى مجرد ثرثرة فارغة المحتوى . وبنفس القدر فان قيمة الكلمة العملية تحتوي على ما في داخلها من رؤ ية فالعمل من غير رؤ ية يلغى حقيقة الحوار ولا يتحقق به شيء على الاطلاق . وهنا يمكننا أن نقول ان الوجود الانساني لا يمكن له أن يظل صامتاً كما لا يمكن له أن يحيا على الكلمات الفارغة ، فالكلمات التي تحييه وتعمل على تغيير العالم هي الكلمات المفعمة بالرؤ ية الصادقة ، وينبني على ذلك أن العيش انسانياً يعني معرفة العالم والعمل على تغييره ، فبمجرد أن يعرف الانسان العالم تتجلى حقيقته ، في نظره كمشكلة تتطلب حلاً ،ويتضح من ذلك عدم وجود الرجال في عالم الصمت ، فالرجال لا بد لهم من الحوار والعمل المتبصر بالوعي والادراك ، وعندما نميل الى الرأي القائل ان الكلمة وحدها هي التي تقود الى العمل الذي يغير العالم نؤ كد في ذات الوقت أن هذه الكلمة ليست حكراً على طائفة معينة من الرجال وانما هي ملك للناس جميعاً ، وذلك يعني أن الكلمة الصادقة لا يمكن أن يقولها رجل واحد سواء كان ما يقوله لنفسه أو للآخرين ، فاصرار مثل هذا الرجل على اسماع كلمته وحدها يعني تجريداً للآخرين من فرصتهم في أن يقولوا كلمتهم أيضاً

ويبدو من ذلك أن الحوار هو المواجهة الحقيقية بين الرجال من أجل تسمية العالم حولهم ، وما دام أمره كذلك فانه لا يمكن أن يتم بين أولئك الذين يريدون تسمية العالم ومعرفته وبين اولئك الذين لا يريدون ذلك كما لا يمكن أن يتم بين الذين يحق لهم أن يقولوا كلمتهم والذين لا يريدون للآخرين قول كلمتهم في هذا العالم . وهذه الحقيقة في ذاتها هي التي تجعل أول عمل يقوم به المستلبون في تحقيق حريتهم هو أن يستعيدوا حقهم في قول كلمتهم ويوقفوا استمرارية الاستلاب اللانساني الذي مورس ضدهم .

لقد أسلفنا القول ان الكلمة هي الوسيلة التي يغير بها الرجال العالم من حولهم وذلك لكونها تمكنهم من معرفة هذا العالم ونؤكد مرة أخرى أن الحوار أيضاً هو وحده القادر على تمييز قيمة الرجال ، وذلك ما يجعله ضرورة وجودية ، فما دام الحوار هو أسلوب المواجهة الذي يغير به الرجال عالمهم ، فانه لا يمكن أن يجرد من خصائصه الرئيسية ليصبح تعبيراً عن أفكار رجل واحد أودعت في رؤوس الآخرين أو مجرد ثرثرة يتبادلها المتنافسون كما لا يمكن أن يكون مواجهة عنيفة بين رجال لم يلتزموا بتسمية العالم والبحث فيه عن الحقيقة ، فأمثال هؤلاء الرجال لا يستهدفون سوى فرض الحقيقة التي يعرفونها على الآخرين ، فما دام الحوار هو مواجهة بين رجال يستهدفون معرفة العالم فانه لا يمكن أن يكون فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين ذلك أن الحوار عمل ابداعي يحتم الا يستخدمه الناس كوسيلة ، يستغلون بها الآخرين ، فالاستغلال المتضمن في مفهوم الديالوج هو ذلك الذي يمكن المشتركين في الحوار من غزو العالم من أجل تحرير الانسان ، ذلك أن تسمية العالم التي هي في الحقيقة ابداع واعادة ابداع لا يمكن لها أن تتم في غياب الحب الذي هو أساس الحوار بل لعله هو الحوار نفسه ، وعلى عكس ذلك فان السيطرة هي بالضرورة آفة ضد الحب لانها تمثل في واقعها نزعة سادية يمارسها القاهرون وماسوشية يتمثلها المقهورون ولما كان الحب موقفاً شجاعاً لا يحفل بالخوف فانه يعترف بالآخرين وحقهم في الحياة وهو حق يتمثل في تحقيق الحرية لهم ، وبما أن الحب موقف شجاع فانه لا يمكن أن يقوم على مبدأ الاستغلال بل يجب أن يولد في الآخرين الرغبة في تحقيق الحرية ، وبدون هذا الهدف فلا يكون الحب حقيقة ،

ويؤكد هذا أن الغاء القهر هو وحده الذي يحقق الحب لان القهر يعارض الحب بالضرورة ، فاذا لم استطع أن أحب العالم والحياة والرجال فلن يكون في مقدوري أن أقيم معهم أي نوع من الحوار .

واذا كان الحب ضرورياً لبدء الحوار ، فان الحوار لا يمكن له أن يتحقق بدون شيء من التواضع ، ذلك أن تسمية العالم التي هي في الحقيقة عملية متصلة في ابداعه لا يمكن أن تتم في جو من الغرور كما لا يمكن للحوار نفسه كعمل يواجه به الرجال مشكلة العلم والعمل أن يتحقق ان لم يتسم الرجال بشيء من التواضع . اذ كيف يمكن لي أن أدخل في حوار مع الاخرين اذا كنت أعتبر نفسي شيئاً مختلفاً عنهم وكيف أدخل في حوار مع الآخرين اذا كنت اعتبر نفسي من أصحاب الدم الازرق الذين يملكون ناصية الحقيقة والمعرفة وينكرون على ما سواهم أي نوع من الفهم . بل وكيف أحاور الناس اذا كنت أعتقد أن معرفة العالم هي من حق الصفوة وأن دخول السواد في التاريخ يعني بداية الانهيار . كذلك كيف أحاورهم اذا كنت أشعر أن وجودي سيتعرض الى التهديد حين أبدأ عملية الحوار ؟ وهكذا فان القناعة بما تراه الذات وحدها نقيض لمنهج الحوار فالحوار انما يقوم بمسئولية الذين يتصفون بالتواضع ويمكنهم أن يدخلوا في علاقة حوارية مع الآخرين من أجل مشاركتهم في معرفة العالم .

ومن ذلك يتبين لنا أن الحوار يتطلب ثقة بالرجال وملكاتهم في الصنع واعادة الصنع ويتطلب ثقة في قدرتهم على الابداع واعادة الابداع ومثل هذه الثقة يجب أن تعم جميع الرجال ولا تقتصر على الصفوة وحدها ، فالثقة بالانسان تمثل أهم المقدمات الضرورية للحوار الناجح ، ذلك أن الرجل المحاور يؤمن بالضرورة بالرجال حتى قبل أن يلتقي بهم أو يستمع اليهم ، ولا يعتبر هذا الايمان ضرباً من السذاجة لان مثل هذا الرجل الواعي بادراكه لقدرته النقدية يعلم أيضاً أن غيره من الرجال ممن يضطلعون بعملية التغيير يمتلكون نفس القدرة وذلك ما يجعله يستجيب لمحاورتهم ، وحتى في تلك الظروف التي يفقد فيها بعض الرجال قدراتهم على النقد فان الرجل المحاور لا يفقد ثقته في أن يستعيد امثال هؤلاء الرجال ملكاتهم

النقدية مرة أخرى ، ولا يتم ذلك بفضل من أحد بل بفضل ممارسة عملية النضال من أجل الحرية ، فبغير الثقة في الرجال يتحول الحوار الى كوميديا لا تخلو من الاستغلال الابوي .

وهكذا فان الحوار الذي يقوم على التواضع والثقة يكرس العلاقة الافقية بين المتحاورين ، ولعله من غير المعقول الا تكرس مثل هذه العلاقة في مثل هذه الظروف ، ذلك أن الذي ينشأ من مثل هذا الحوار هي علاقة تضامنية في معرفة العالم وادراكه،وذلك ما يفتقر اليه المنهج البنكي الذي يقوم في الاساس على غير الثقة . ومن واجبنا أن نعرف أن الحب الزائف والتواضع المصطنع والايمان الضعيف لا يمكن لها أن تولد مثل هذا النوع من الثقة ، ذلك أن الثقة في كل الظروف هي وليدة الصدق الذي يبديه المتحاورون والتي بدونها لا تكون الأقوال مطابقة للافعال، ولعله من الطبيعي أن نقول ان الحوار لا يمكن له أن يوجد بدون أمل ، ذلك أن الأمل مزروع في نقص الانسان وهذا ما يدفعه الى البحث مع بقية الرجال عن الأفضل ، فاليأس هو نوع من الصمت وانكار للعالم بل هروب من مواجهته.ومن هنا نعلم أن مواضع القهر التي تمتهن فيها كرامة الانسان يجب الا تكون مواضع يأس بل يجب أن تكون منطلقات أمل لأجل تحقيق انسانية الانسان التي أهدرت بسبب عدم العدالة،أما الآمال فانها لا تتحقق حين يعقد الانسان يديه ويجلس منتظراً،بل تتحقق حين يناضل مؤملاً في نتيجة نضاله « فما دمت أناضل فيحق لي الانتظار » .

وكذلك فان الحوار لا يمكن له أن يتخذ من اليأس بيئة له ، فاذا لم يؤمل المتحاورون في نتيجة حوارهم فستصاب مجهوداتهم بالخواء والعقم والبيروقراطية والملل . وخلاصة الامر ، فان الحوار الصادق لا يمكن له أن يوجد دون تفكير نقدي يشخص العلاقة القائمة بين الرجال والعالم ، ذلك أن التفكير الذي يرى الحقائق كحركة تطورية غير منفصلة عن العمل هو التفكير الذي يستثيره الحوار المجدي . فالتفكير المجدي يختلف عن التفكير السطحي الذي يرى في العمل التاريخي مجرد استعادة للماضي ، ذلك أن المفكر السطحي يولى اهتمامه الأكبر للتأقلم مع الحاضر

أما المفكر الناقد فيرى في المستقبل عملية تطور مستمرة من أجل تحقيق انسانية الرجال وحريتهم .

يقول « بييّرفيرتر » .

« ان العالم لا يبدو لي كفضاء يفرض عليَّ كتلة من الحاضر يطالبني بأن اتأقلم معها بل هو مجال يتشكل بحسب تصرفي فيه »

وبالنسبة للمفكر الساذج فان الهدف يتركز عنده في الامساك بقوة بهذا الفضاء المضمون وبذلك فهو ينكر عامل الوقت وينكر نفسه أيضاً » .

اذاً الحوار وحده هو الذي يحتاج الى التفكير الناقد وهو وحده القادر على توليد التفكير المبدع ، فبدون الحوار لا يوجد اتصال وبدون اتصال لا يوجد تعليم ، فالتعليم الحق هو القادر على حل التناقض في علاقة الطالب والاستاذ وهو الذي يجعلهمامشاركين في عملية واحدة،ومن هنا يتأكد أن الصفة الحوارية للتعليم كمظهر للحرية لا تبدأ حين يقابل المدرس التلميذ في موقف تعليمي بل تبدأ حين يسأل المدرس نفسه عن القضية التي سيجعلها موضوعاً للحوار مع التلميذ ، ذلك أن معرفة موضوع الحوار تعني الاهتمام السابق بموضوع التعليم . وعلى غير هذا النهج فان معلم المنهج البنكي يقتصر محتوى البرنامج عنده في المادة التي سيلقيها على الطلاب والتي سيجيب فيها على اسئلته الخاصة والتي حددها في برنامجه وهذا منهج يختلف عن منهج المعلم الذي يطرح المشكلات ولا يعتبر التعليم منحة يهديها للطلاب أو فرضاً يفرضه عليهم أو وديعة يودعها عقولهم ، فالمادة عند هذا الاستاذ هي نوع من العرض المنظم والمنسق للأشياء التي يريد الطلاب أن يعرفوا عنها ، وهكذا فان التعليم الحق لا يقوم به زيد عن عبيد أو عبيد عن زيد بل يقوم به زيد وعبيد كلاهما مع العالم الذي يثير الاندهاش والتحدي فيولد فيهم الآراء عنه ، ولعل ما تحمله هذه الاراء من قلق وشكوك وآمال ويأس هي التي تمنح الاساس الذي تقوم عليه نظريات التعليم ، وهكذا ففي سبيل الرغبة من أجل خلق انسان ممتاز فان النظرة السطحية غالباً ما تتجاهل حاضر الرجال الحقيقي . وكما عند « بيير

فيرتر » فان الانسانية الحقة تتطلب منا احساساً بالانسانية في صورتها الكاملة وذلك
ما لا يمكن أن يتم عن طريق المنهج البنكي حيث لا يمكن أن تمنح المعرفة بواسطته الى
العمال والفلاحين ولا يمكن أن يتمخض عنه ظهور الانسان الصالح الذي وضعناه في
برنامجنا . لقد فشلت كثير من الخطط السياسية والتعليمية لان واضعيها خططوها
انطلاقاً من تصوراتهم الخاصة للواقع دون اعتبار لحقيقة الرجال الذين وضعت
الخطط في الأساس من أجلهم ، وهكذا فبالنسبة للمعلم الانساني فان الثورة الحقة
تعني تغيير الواقع بالرجال ومعهم ، فالقاهرون وحدهم هم الذين لا يرغبون في مثل
هذا التغيير ولسوء الحظ فان القادة الثوريين من أجل كسب تأييد الرجال للعمل
الثوري فانهم كثيراً ما يلجأون الى الأسلوب البنكي حيث يمارسون التخطيط من أعلى
فتجدهم يواجهون الفلاحين والعمال بمشاريع ككل ارائهم الخاصة عن العالم ولا تأخذ
في الاعتبار آراء الجماهير ، فهم بذلك ينسون هدفهم الاساسي وهو النضال الى
جانب الجماهير من أجل استعادة حريتها المستلبة لا من أجل اكتسابهم لدعم سلطة
القيادة ، ومن الطبيعي أن نقول ان تدعيم القيادة فحسب أمر لا يدخل في قاموس
الثوريين الحقيقيين وانما يدخل في قاموس القاهرين ، ذلك أن دور الثوريين هو
تحرير الجماهير المقهورة وتحرير أنفسهم في ذات الوقت ، ومن ثم فلا يقتصر دورهم
على كسب الجماهير لصالح قيادتهم . غير أنه ومن خلال الحركة السياسية تعمد
الصفوة الى استخدام المنهج البنكي لاشاعة مزيد من السلبية في صفوف المقهورين
وتنتهز الصفوة هذه السلبية لتملأ صدور الجماهير بالشعارات التي تخيفهم من الحرية
ولا يتفق مثل هذا العمل مع العملية التحريرية التي تستهدف نزع شعارات
القاهرين لا تثبيتها ، وعلى العموم فان الثوريين الانسانيين لا يستهدفون استبدال
شعارات القاهرين بشعاراتهم جاعلين من المقهورين حقل تجارب لتلك الشعارات
بل هم في الحقيقة يستهدفون تنوير المقهورين لاقتلاع الازدواجية التي تستبطن
القاهرين في داخل نفوسهم حتى يتسنى لهم أن يمارسوا وجودهم الانساني الحق.
ويحتم هذا العمل الا يذهب قادة الثورة الى الجماهير كي يملأوها بشعاراتهم عن
الخلاص بل عليهم أن يصلوا معهم بواسطة الحوار الى تفهم واقعهم في ظروف
العالم الذي يحيط بهم ، ومن الطبيعي ان نقول ان الانسان لا يستطيع أن يقول كثيراً
عن برنامج سياسي أو تعليمي يتجاهل موقف الناس من العالم ، فمثل هذا البرنامج

هو في حقيقته غزو ثقافي مفعم بالنوايا الطيبة ولكنه لا يستطيع أن يحقق اهداف المقهورين.ويتضح من ذلك أن أولى المسائل التي يتطلبها البرنامج التعليمي أو السياسي للحركة الثورية هو أن يجسد واقع الناس ذلك أن اظهار بعض التناقضات يضع الناس أمام المشكلات التي تتحدى وجودهم والتي تتطلب مجابهتهم لها . ليس بالطبع على المستوى الثقافي فحسب بل على المستوى العملي أيضاً . وفي مثل هذا البرنامج يجب الا نركز على الحاضر وحده اذ لا بد ان يشتمل البرنامج على تجارب الناس الماضية مظهراً الشكوك والمخاوف التي أرقت ضمائرهم فيما مضى .

وهنا يجب الا نتحدث الى الناس عن ارائنا نحن في العالم أو أن نفرض عليهم ما نراه صحيحاً بل يجب أن ندخل معهم في علاقة حوارية يكون محورها أراؤهم عن العالم . وسندرك من هذا الحوار أن اراءهم عن العالم هي صميم خبرتهم ووعيهم به . وأما العمل السياسي والتعليمي الذي لا يتنبه الى هذه الحقيقة فسيقلص نفسه في اطار المفهوم البنكي أو الوعظي وبالتالي فلن يتمكن من حل قضايا التقدم والتغيير ، ففي مثل هذا المنهج كثيراً ما يتحدث المعلمون والسياسيون بلغة لا يفهمها الناس وذلك ما يحتم أن تكون لغة المعلم والسياسي ـ الذي هو بدوره معلم أيضاً ـ شبيهة بلغة الناس تعتمل بفكرهم وارائهم وذلك ما يتطلب من المعلم السياسي كي تصل مفهوماته الى الناس أن يفهم ظروفهم والطريقة المثلى للتحاور معهم ، ذلك أن عملية التعليم الحقة هي التي تقود المتعلمين الى الحرية وتتم هذه العملية بطريقة حوارية تكشف عن التصورات المبدعة وتحرك وعي الناس لتمثل هذه التصورات وذلك ما يحتم أن تكون مادة الحوار مبنية على اراء الرجال عن العالم بل ومستوى هذه الآراء في رؤ ية العالم .

وقبل ان اشرع في وصف « الفكرة المولدة » يحق لي أن أبرز بعض الأمور الهامة ، ذلك أن الفكرة المولدة ليست في حقيقتها فكرة جدلية مخترعة ولا نظرية تستوجب الاثبات وحتى لو كانت نظرية تحتاج الى اثبات فسوف لن يحاول البحث الاساس تأكيد طبيعة الفكرة بل سيركز على حقيقة وجود الأفكار الموضوعية أساساً أو عدم وجودها ، واذا قبلنا محاولة فهم الفكرة الموضوعية وما يتمثل فيها من خصائص

الغنى والأهمية والمشاركة والقدرة على التغيير بالاضافة الى التكوين التاريخي تحتم علينا أن نتحقق مما اذا كانت الفكرة في الاساس ذات طبيعة موضوعية أم لا ، لأنه بتحققنا من ذلك وحده يمكننا بعد ذلك أن نحول عملية الفهم . وعلى الرغم من مشروعية الشك فيبدو من السهولة بمكان تمييز الفكرة المولدة من غيرها ، ليس ذلك بالطبع عن طريق الخبرة الفردية بل عن طريق النظر الناقد للرجال جميعاً حين يتبادلون العلاقة مع العالم الذي يعيشون فيه ، ولعل هذه النقطة تحتاج الى مزيد من الاهتمام ، ونقول في ذلك أن الانسان وحده من بين المخلوقات الناقصة هو الذي يستطيع أن يجعل من نفسه وأعماله موضوعاً لادراكه وهذه القدرة هي التي ميزته عن سائر الحيوانات التي لا تستطيع أن تميز أفعالها بعيداً عن ذاتها ومن ثم لا تستطيع أن تفكر فيها ، ففي مثل هذا التمييز السطحي تتحدد مجالات العمل لكل من الانسان والحيوان . ولما كان العمل بالنسبة للحيوان هو امتداد لذاته فهو لا يستطيع أن يفصل بين العمل وذاته ولا يستطيع بالتالي أن يحدد لنفسه أهدافا يستطيع بموجبها ان يغير العالم . ويمكننا على وجه الاطلاق أن نقول ان الحيوانات كائنات تعيش لذاتها وعدم قدرتها على اتخاذ القرار وتحديد الاهداف هو الذي يجعلها تعيش في عالم بدون معنى لأنه عالم يفتقر الى الحاضر والمستقبل أو على وجه أصح هو عالم بدون تاريخ يسيطر عليه حاضر متصل . وهذا العالم غير التاريخي لا يشبه العالم الذي يعيش فيه الانسان ذلك أن العالم بالنسبة للحيوان مجرد مسرح يعيش فيه وهو مكان لا يواجه فيه التحديات بل ينساق فيه الى غرائزه وهو استناداً على ذلك لا يتحمل مسئولية المخاطرة لأنها غير معروفة لديه ، أما بالنسبة للانسان فالمخاطرة ليست واقعاً مجسداً يراه بعينيه بل هي ظاهرة تدل عليها علامات يعرفها ، وعندما يخوض التجربة فهو يضع في ذهنه كل الاحتمالات لان المغامر لا يملك أن يحدد نتائج مغامرته . ولما كانت الحيوانات على غير هذه الشاكلة فانها لا تستطيع أن تلتزم وذلك لانعدام فاعليتها في البناء والتطوير وعدم احساسها بقدرة العالم على تدميرها ، فهي لا تستطيع أن تحول العالم الى شيء ذي مغزى أي لا تستطيع أن تحوله الى عالم من التاريخ والثقافة . وكنتيجة لذلك فان الحيوانات لا تستطيع أن تقرر « حيونة » وجودها ولا تختلف حياتها في الغابة ككائنات في ذاتها عن حياتها في حديقة

الحيوان ، وبعكس ذلك تماماً فان الرجال يكونون دائماً على وعي تام بانشطتهم والعالم الذي يعيشون فيه ، فهم يتصرفون بناء على أهداف يقترحونها بأنفسهم ويحددونها حسب علاقتهم مع العالم والآخرين ، وهكذا تجدهم يفعمون العالم بطاقاتهم المبدعة ، وعلى غير ما هو الأمر مع الحيوانات فان الرجال لا يعيشون فقط بل هم في الحقيقة يحيون وحياتهم بالضرورة ذات قيمة تاريخية ، ولا تتميز الحيوانات بهذه الخصيصة لأن حياتها ذات قيمة مؤقتة أو نمطية مسطوحة . فالرجال يعيشون في عالم يحدثون فيه تغييراً متصلاً ، وأما الحيوانات فانها تعيش بالعادة ولا يعني المكان بالنسبة لها سوى موضع تمارس فيه وجودها ، وعلى غير ذلك فان الرجال يعتبرون العالم تجسيداً فيزيقياً يمارسون فيه وجودهم التاريخي . ونستطيع أن نقول على وجه أدق ان الحيوان لا يعي معنى المكان والزمان والغد والأمس ، فهو يفتقر الى الوعي بمثل هذه الأمور وأما الرجال فلأنهم يعون حقيقة أنفسهم وحقيقة العالم الذي يعيشون فيه فانهم يعيشون في علاقة جدلية مع العالم يستكشفون فيها أبعاد قيودهم والآفاق التي تحررهم منها . وبمجرد أن يميزوا أنفسهم عن العالم وعما يقومون به من أفعال ويصبح في مقدورهم تحديد موقفهم من أنفسهم في علاقتها مع العالم يبدأون في تجاوز قيودهم الشخصية بمواجهة التحدي الذي يسميه « فيرا ينت » رد الفعل وهي مجموع المواقف التي تقضي على السلبية وتتجاوز العقبات . وهكذا فليست التحديات في ذاتها هي التي تخلق اليأس بل الزاوية التي ينظر منها الناس الى هذه التحديات هي التي تحدد يأسهم وأملهم . ولما كان النقد الواعي متضمناً في العمل فان الأمل والثقة كفيلان بأن يقودا الانسان لتجاوز الصعاب في حقبة تاريخيه لتبدأ صعاب جديدة يحاول تجاوزها بأمل جديد .

وهكذا فان العالم كمسرح للحيوان ليس فيه أي نوع من التحدي بسبب طبيعته غير التاريخية ، ومن ثم فلا تستطيع الحيوانات أن تجرب الوسائل التي تتجاوز بها الصعاب والتي تتطلب موقفاً حاسماً من العالم يتلخص في معرفة الأهداف التي يتم بها تطويره. ولقد لخصنا دور الحيوان في التأقلم مع العالم. وهكذا فعندما يبني الحيوان عشاً أو خلية أو حجراً فهو في الحقيقة لا يواجه بذلك تحدياً بل يلبي حاجة عضوية غريزية طبيعية ، ذلك أن حاصل عمل الحيوان يرتبط مباشرة بوجوده

العضوي ، ولكن الانسان غير ذلك لأنه يواجه عمله بحرية وتصدر أعماله عن وعي بها،وجميع الأعمال التي تصدر عن وعي هي التي يكون لها معنى وهي التي تجسد العالم في النهاية .

ويتلخص الفرق بين الحيوان الذي لايستطيع أن يعي شيئاً والانسان الذي يدرك حقيقة ابداعه فيما نسميه الممارسة المبدعة للثقافة والتاريخ ، فالانسان وحده هو القادر على مثل هذا العمل بفضل وعيه ومعرفته وعمله،وذلك بالطبع ما يفتقر اليه الحيوان.ويبدو لنا أن الرجال في مواجهتهم للعالم لا ينتجون بضائع مادية فحسب وانما ينتجون أيضاً أفكاراً ونظماً ومفاهيم ، ولما كان الرجال قادرين على تحويل الزمن الى ماض وحاضر ومستقبل فهم أيضاً قادرون على تطوير العالم من خلال مراحل واضحة المعالم،وهي ليست مراحل مغلقة أو جامدة بل هي في الحقيقة مراحل متداخلة ومتواصلة من أجل استمرارية حركة التاريخ حيث كل حقبة من هذه الحقب تتميز بآرائها ومفاهيمها وآمالها وشكوكها وتحدياتها وهذه الأمور جميعاً هي التي تكون الاساس الذي تقوم عليه الحقبة باسرها وهي التي تولد ما يعاكسها ليصبح موضوعاً لعمل جديد .

ويتضح لنا أن هذه التركيبة المتداخلة من التصورات هي التي تعطي العالم قيمته التصورية ، وبما إن الناس يختلفون في تصورهم للغالم فأنت تجدهم يتخذون منه مواقف متناقضة ، فبينما يرغب بعضهم في المحافظة على الهياكل الموجودة يتجه آخرون نحو تغييرها وكلما اتسعت الهوة بين التصورات المختلفة للعالم اكتسب الناس رؤ ية ضبابية عن الحقيقة لأن الذي يسود في مثل هذه الحال هي المذهبية واللاعقلانية وتلك من الأمور التي تهدد التصورات ذاتها لأن التصورات في مثل هذه الحال تبدأ في فقدان فاعليتها الديناميكية وخصائصها الأصيلة . وفي هذا الجو يصبح الفكر الخرافي قوة مسيطرة على العقل البشري،وفي مثل هذا الجو أيضاً يجد الفكر المناقض والذي يحاول أن يكشف حقيقة الخرافة ـ ليحقق التجديد المؤدي الى حرية الانسان ـ صعوبة في تحقيق ذاته ، ومن ذلك يتبين لنا أنه في الوقت الذي يحاول فيه الانسان تجاوز العقبات التي تحد تصوراته للعالم فان هذه التصورات

نفسها قد تصبح في بعض الأحيان عقبة لا بد من تجاوزها,وباختصار فان كل موقف من المواقف سواء كان يعوق التقدم أو لا يعوقه لا بد وأن يجد فئة من الناس تستفيد منه وأخرى تتأذى به ومن أجل ذلك فالمطلوب دائماً هو التصور ذو المضمون المحقق في النهاية لحرية الانسان .

وقد توجد « الافكار المولدة » في اطار دائري ينتقل فيه الانسان من الأعم الى الأخص ، غير أني أرى أن أهم تصور يشغل مرحلتنا هذه هو موضوع الاستغلال والسيطرة وهذا ما يدعونا الى أن نواجههما بما يقابلها وهي الحرية، فمن أجل تحقيق الانسانية والقضاء على الاستلاب فلا بد من القضاء على الظروف التي حولت الناس الى مجرد أشياء ، فنحن نلاحظ في اطار الدوائر الضيقة وجود تصورات معينة وعقبات تحدها,وهذه العقبات مشتركة في جميع المجتمعات الانسانية ، وعلى سبيل المثال فان التخلف الذي يعني الاعتماد على الغير يمثل صورة مشتركة للعقبات التي تواجه مختلف دول العالم الثالث وهذه العقبات تتضمن معنى آخر وهو ضرورة أن تتجاوز هذه المجتمعات واقعها المتخلف لتلحق ببقية الدول المتمدينة ولا ينفي ذلك أنه خلال كل مرحلة تاريخية فان كل مجتمع من المجتمعات الى جانب مشاركته بقية المجتمعات الأخرى - سواء على المستوى العالمي أو القاري - بعض المظاهر فان له مشكلاته الخاصة التي يتميز بها وهذا ما يجعلنا نرى في لاطار الضيق تصورات أو موضوعات متعددة في داخل المجتمع الواحد نفسه تختلف بحسب المناطق وتقسيماتها فيه.وعلى سبيل المثال فأنت تجد في داخل المجتمع الواحد نماذج كثيرة لا تواكب المرحلة التي يعيشها المجتمع ، فقد لا تمثل الرؤ ى الوطنية الكبرى في داخل الوحدات المصغرة في المجتمع أهمية كبرى ، وبالرغم من ذلك فان وجود مثل هذه التصورات المشوهة في بعض قطاعات المجتمع لازم لان عدم وجودها يعني أن المجتمع ما زال يرزح تحت ظروف القهر . وعلى العموم فان الضمير المقهور الذي لم يستطع أن يتبين العقبات التي تحول دون انطلاقه في صورتها الشاملة يستطيع أن يتبين بعض مظاهرها ويعزو اليها جميع الأسباب التي تحول دون انطلاقه وهذه حقيقة مهمة لا بد من ادراكها قبل اكتشاف التصور الفعال للخروج بالمجتمع من واقعه ذلك أنه عندما يعجز الناس عن تحليل واقعهم بصورة شاملة ويكتفون برؤ يته رؤ ية مجزأة فانهم لا

يستطيعون تفهم موقفهم ، ولأجل أن يتفهم الناس واقعهم عليهم أن يعودوا الى نقطة البداية لينظروا الى واقعهم نظرة شاملة من أجل أن يتعرفوا على حقيقة تلك الاجزاء التي استبانوها في أول أمرهم ليكونوا نظرة شاملة مستمدة من واقعهم .

ومن المناسب أيضاً في منهج البحث عن التصورات أو في منهج طرح المشكلات أن يحاول الفرد تجميع العناصر المختلفة الى بعضها ليكون منها صورة متكاملة ، فبهذا الموقف وحده يستطيع الانسان تحديد موقفه من حقيقة المجتمع وهو موقف سيكون قوامه الصحة والعمق ولا ريب ، وفي الحالة التي لا يستطيع الناس فيهارؤ ية الحقيقة بسبب تعقيدهاوكثافتها وعدم القدرة على تبينها، فان أفضل سبل البحث هوالتجريد، ولايعني ذلك أن يتحول التجسيد الى صورة مجردة بل يعني أن يتعاون المجسد مع المجرد في منهج جدلي لتكوين الرؤ ية المطلوبة وهذه الحركة الجدلية في الفكر تتجلى في أبهى صورها عندما ينتقل الانسان في جدله من المجرد الى المحسوس اي حين يرتقي من الجزئي الى الكلي والعودة مرة اخرى الى الأجزاء أو بمعنى أخر حين يحاول أن يتبين نفسه من خلال المعقول واضعاًفي اعتباره أن الفعل موقف مقحم عليه مع رجال آخرين ، فهذا المنهج يؤدي في النهاية الى سيادة المنهج التجريدي القائم على نقد المحسوس الذي توقف عن أن يكون كثيفاً وغامضاً وغير نافذ الى الرؤ ية الشاملة. فعندما يواجه الانسان بموقف يحاول أن يفك رموزه فان محاولة الفك هذه تسمى « وصف الموقف » وهي التي تساعد على اكتشاف العناصر التي تشكل الصورة الشاملة وحينئذ يصبح الموقف الغامض مدركاً وتتسلط عليه الأضواء من جمع الجهات،وبما أن الرموز التي عالجها الباحث هي صورة للواقع فان الباحث يبدأ ربط هذه الصورة بالواقع الذي يعيش فيه وبهذه الطريقة يبدأ الانسان في التعامل بأسلوب مختلف مع الواقع ، ذلك أن الواقع يصبح في نظره حقيقة واضحة تجابهه بالتحدي الذي لا بد له أن يقبله ، ولا ينفي ذلك بالطبع أنه خلال حل رموز الموقف الغامض يقحم الباحث اراءه الشخصية عن العالم ويتشكل في النهاية موقفه سواء كان متسماً بالقدرية أو الحركية أو الجمود . وتحت أي ظرف من الظروف فلا بد أن يعبر الانسان عن موقفه لان الجماعة التي لا تعبر عن موقفها هي في الحقيقة تتخذ موقفاً دراميا يعرف « بنظرية الصمت » . ونظرية الصمت هي في حقيقتها ضرب من الموت في مواجهة التحديات ، ولا بد لي أن أؤكد أن التصور

المحرك للطاقات لا يمكن أن يوجد بمعزل عن الواقع كما لا يمكن أن يكون هنالك واقع بغير رجال ، فالتصور المحرك هو دائماً حيث تكون هنالك علاقة بين العالم والرجال ولكي نتفهم طبيعة هذا التصور علينا أن نعرف كيف يفكر الرجال بالواقع وكيف يعملون من أجل تطويره ، فبقدر ما ينشط الرجال في اكتشاف تصورهم للعالم تتعمق رؤ يتهم له ، ولا ريب أن البعض لا يحبذون أن يروا الرجال باحثين عن التصورات المجدية للحياة ، لأنهم يعتقدون أن مثل هذا البحث يؤ دي الى مسخ الحقائق بتصورات الرجال المتباينة وهذا الرأي خطأ لانه ينبني على أن التصورات موجودة في صورتها النقية الصامتة خارج ضمائر الرجال والأصح هو أن التصورات والنظريات كلها محكومة بعلاقة الرجال بالعالم فالحقيقة الواحدة قد تولد تشكيلة من التصورات المولدة تختلف بحسب بيئات المجتمع وهذا ما يؤ كد وجود علاقة بين الحقيقة في ذاتها من حيث هي واقع ومن حيث تصور الناس لها بل ومن حيث التصورات المولدة التي تحدثها . ويبدو من ذلك أن التصورات المجدية هي في الواقع تعبير عن الرجال في لحظات معينة لأن كل مرحلة تختلف ظروفها عن الأخرى وهنا ينبغي على الباحث ان يركز على نقطة البدء ليعرف خلال عملية التغيير ان كان هنالك تغيير قد انجز أم لا ، وعلينا أن ندرك أن الاطماع والدوافع والأهداف المتضمنة في أي تصور أو تنظير انما تسعى الى تحقيق أهداف انسانية وبذلك يكتسب التنظير أو التصور أهميته التاريخية ، ولأجل ان نفهم قيمة هذا التنظير فعلينا أن نفهم الرجال الذين أبدعوه والظروف التي أحاطت بهم.وهكذا فان البحث عن التصورات أو الرؤ ية الشاملة هو في حقيقته بحث من أجل التبصر بالواقع الذي تكون رؤ يته بداية عملية تعليمية أو بداية الثورة الثقافية من أجل تحرير الانسان.ولا تكمن خطورة البحث في أن يكتشف الرجال الذين يساعدون في البحث وهم موضوعه حقيقتهم كمساعدين فيعوقون نتائجه بل يكمن الخطر الأكبر في أن ينتقل التركيز من موضع البحث ذاته وهو ايجاد التصور المجدي أو الرؤ يه الشاملة للمجتمع الى الرجال أنفسهم فيصبحوا بالتالي مادة وموضوعاً للبحث وما دامت غاية البحث هي أن يكون عوناً في تطوير برنامج يلغى العلاقة البنكيه ويقيم مكانها علاقة جديدة بين المدرس والطالب من أجل المعرفة الحقة فلا بد له من أن يقيم دعائمه على علاقة حوارية بين الطرفين لانه لا يمكن تحويل البحث الموضوعي في حقيقة الانسان الى

عمل ميكانيكي . وهذا يتطلب من الباحثين ترجمة المشكلات وتبينها عندما يحاولون الربط بين التصورات المختلفة ، فالبحث يبلغ طاقته التعليمية القصوى عندما يتسم بقدرته النقدية متجنباً التصورات العتيقة للواقع. وينبني على ذلك أن البحث عن تصورات فعالة لا بد أن يحفل بالتصورات المختلفة ويعالجها كمشكلات ذات قيمة تاريخية وثقافية .

وأما الباحث الذي يعمل باسم الموضوعية العلمية ثم يحول الظاهرات العضوية الى ظاهرات غير عضوية والذي يحول الحياة الى موت فهو باحث يخشى التغيير وهو لا يرى في التغيير رمزاً للحياة بل يرى فيه رمزاً للموت والفناء ، حقاً هو يرغب في دراسة التغيير ولكنه لا يرغب في دراسته من أجل تطويره بل من أجل وقفه. وهو في تصوره للتغيير رمزاً للموت وفي تصوره للناس ككائنات من أجل أن يبرر صيغه الجامدة إنما يخون ذاتيته الخاصة ويدمر حياته ، وأكرر قولي بأن البحث عن التصورات هو في حقيقته بحث عن واقع التفكير الانساني . انه بحث يتم بين الرجال الذين يبحثون مجتمعين عن حقيقة هذا العالم الذي يعيشون فيه ، فأنا لا استطيع أن افكر في الآخرين الا اذا كانوا معي وكذلك فلا يستطيع الآخرون ان يفكروا من أجلي دون أن أكون معهم ، وحتى لو كان تفكير الناس ساذجاً وخرافياً فان الطريق الوحيد لتحقيق تطورهم هو الاستمرار في ممارسة التفكير حتى يصلوا في النهاية الى التصور الأمثل ، فالرجال ككائنات في موقف يجدون أنفسهم مزروعين في ظروف مكانية معينة يميزونها وتميزهم وبما أن هذه الظروف تعكس واقعهم وتتحداهم فهم لا يكتفون بنقد الوضع الذي هم فيه بل يعملون أيضاً من أجل تغييره .

وهكذا فان الوعي بالوضعية الانسانية هو في حقيقته وعي بالوجود الانساني كله،ذلك أن الانسان في نقده لوضعه يبدأ في اكتشاف الآخرين الذين هم في مثل وضعه ، فالرجال يبدأون عادة في الخروج من واقعهم الذي هم فيه لاكتساب القدرة على تغييره بعد تعريته،وهذا التدخل الايجابي في الواقع هو في حقيقته وعي تاريخي يمثل خطوة الى الأمام يعمق دوافعها في نفس الانسان احساسه بوضعيته ومن هنا نتبين

أن الاحساس يعمق الوعي في كل الظروف .وبعكس الأسلوب غير الجدلي أو غير الحواري أو البنكي، فان أسلوب طرح المشكلات انما ينشأ وينظم من خلال آراء الطلاب عن العالم ولأجل ذلك فان موضوعه يتوسع ويتجدد باستمرار باختلاف تصورات الطلاب ، وهكذا فان مهمة المعلم الحواري لا تتركز في تقديم المحاضرات بل في تكريس المشكلة التي يعرضها الطلاب من خلال تصوراتهم للعالم . ولنفترض على سبيل المثال أن جماعة من الدارسين كانت مهمتهم تنظيم برنامج لتعليم الكبار في مجتمع زراعي نسبة الامية فيه مرتفعة للغاية ، في مثل هذه الحال يتضمن البرنامج حملة للتوعية تسبقها مرحلة تمهيدية ، وفي هذه المرحلة يتجه منهج طرح المشكلات الى معرفة التصورات التي ينطلق منها هذا المجتمع ، ولنحاول هنا الكشف عن الموظوعات التي تحدد التصور المجدي لمثل هذا المجتمع ، فبمجرد ان يحدد الباحثون المنطقة التي سيعملون فيها يبدأون في تكوين معرفة أولية عنها بواسطة بعض المصادر الثانوية لمساعدتهم في القيام بالمراحل الأولى من البحث ، ولا شك أن البداية ستواجه بكثير من المصاعب والأخطار كما هو الحال في مثل هذه الأعمال ، وفي البداية يحتاج الباحثون الى عدد من الناس يوافقون على حضور اجتماع غير رسمي لسماع اهدافهم في المنطقة، وفي هذا الاجتماع يتحدث الباحثون عن أغراض بحثهم وكيف يمكن أن يتم وما الفوائد التي ستجنى منه ، وفي ذلك الاجتماع أيضاً يوضحون للناس انه من غير الممكن اجراء البحث بدون التفاهم والثقة المتبادلين ، فاذا وافق المجتمعون على اجراء البحث وتنفيذ ما يترتب عليه بدأ الباحثون على الفور في تجنيد المتطوعين من بين المجتمعين ليعملوا كمساعدين لهم وتكون مهمتهم جمع المعلومات الخاصة بالحياة في المنطقة، ولعل وجودهم المجرد في مثل هذا النوع من العمل هو في حد ذاته ذو أهمية بالغة ، وفي نفس الوقت يبدأ الباحثون زياراتهم الى المنطقة دون أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، فالواجب يحتم عليهم أن يظهروا بمظهر المتعاطفين الذين يهمهم أن يتفهموا ما يرونه ، وبما أن الباحثين يأتون الى المنطقة بقيمهم الخاصة فليس هذا مجالاً لفرض تلك القيم ، اذ المهم هو معرفة تصور الناس في المنطقة لواقعهم ، فهذا هو المدخل الحقيقي لهذا الواقع من أجل كشفه ، ولسنا بحاجة الى تأكيد أن مثل هذا التصور لا يمكن فرضه على الناس، ومن هنا يبدو البحث عن تصور الناس لعالمهم كضرب من البحث

التعليمي أو الثقافي ، وهكذا فمن خلال الزيارات المتعاقبة يحدد الباحثون تصوراتهم عن المنطقة موضع الدرس لأجل تحليلها،وهنا يتحتم عليهم أن ينظروا الى المنطقة ككل شامل من خلال تجميع الأجزاء المختلفة التي لاحظوها خلال زياراتهم المتعددة وسيتمكنون بهذه الطريقة من توسيع ادراكهم للكيفية التي تتفاعل بها الاجزاء المختلفة المكونة للمنطقة وذلك بالطبع سيمكنهم في النهاية من تكوين تصورهم الشامل .

وخلال مرحلة التحليل هذه يبدأ الباحثون في ملاحظة بعض الحالات في المنطقة سواء كان ذلك بالوسائل المباشرة أو غير المباشرة وعليهم أن يسجلوا كل ما يلاحظونه في مذكراتهم حتى وان حمل بعض التفاصيل غير المهمة ، ومن الأمور التي ينبغي تسجيلها الكيفية التي يتحدث بها الناس وطرائقهم في الحياة وسلوكهم في العمل والعبادة كما عليهم ان يسجلوا المفردات اللغوية التي يستخدمونها وطرق التغير ومثل هذه من الأمور ، فالمهم دائماً هو أن يلاحظ الباحثون المنطقة في ظروف مختلفة سواء كان ذلك في ساعات العمل في الحقل أو اللقاءات الاجتماعية أو دور المرأة والشباب،كما ينبغي عليهم أن يسجلوا ماذا يفعل أهل المنطقة في أوقات الفراغ وما هي العابهم ورياضاتهم ومادة حديثهم في المنازل والعلاقات الاسرية ، وباختصار يجب الا تفوت هؤلاء الباحثين أي شاردة أو واردة من حياة هؤلاء الناس .

ومن واجب كل باحث أن يكتب ملاحظاته ويعرضها على بقية أفراد الفريق من أجل درسها وتحليلها سواء بواسطة المتخصصين او بواسطة مساعديهم من المتطوعين المحليين ولأجل ضمانة مشاركة المساعدين فالمفروض أن تعقد الاجتماعات في داخل المنطقة نفسها.وتعتبر مرحلة تحليل نتائج هذه الاجتماعات مرحلة تالية من أجل معرفة الواقع الحياتي لسكان هذه المنطقة فبينما كل باحث يعرض في مقاله الكيفية التي رأى بها الموقف فانه بذلك يتحدى الآخرين الذين مارسوا معه نفس التجربة،وبهذه الطريقة يمكنهم اعادة النظر في كل تصوراتهم السابقة،وهكذا يعود بهم الأمر الى الوقائع المجزأة التي رأوها لينظروا اليها من خلال علاقة حوارية ككل شامل ، وفي نفس الوقت يشاركهم في ذلك ممثلو المنطقة وبقدر ما تتوسع نظرة الباحثين في رؤية المجتمع بقدر ما يتمكنون من ملامسة مركز التناقضات الثانوية

التي يعيشها سكان المنطقة،وباخضاعهم هذه المتناقضات للدرس يمكنهم تصميم البرنامج الصالح للتعليم في هذه المنطقة ، وكلما كان البرنامج قادراً على عكس تناقضات المنطقة كلما أصبح التعليم ذا جدوى،ويمكن للانسان في مثل هذه الحال أن يؤكد بثقة أن العمل الذي يتم بهذه الطريقة مضمون له النجاح اكثر من العمل الذي يأتي في شكل قرارات من فوق ، فالبدء من مرحلة التناقضات هو في حد ذاته ضرب من التحدي ، فاذا استجاب الناس بقدرية لم يعذ أمامهم عمل يؤدونه أما اذا عكسوا درجة وعيهم فانهم سيطورون واقعهم . وهكذا فان التحدي في أي منطقة يستوجب ما يقابله،لذلك فان من مهمة الباحثين أن يركزوا على معرفة ما يسميه « جولدمان » الوعي الحقيقي والوعي الكامن ، فالوعي الحقيقي يوحي بعدم امكان تجاوز الامكانات غير المجربة ، ولكن من خلال التجربة يدرك الانسان امكانية هذا التجاوز ،وبذلك يتحقق وعيه الكامن،وهكذا فان الوعي الكامن في مفهوم « جولدمان » هو شبيه بمفهوم « نيكولاي » « الحلول العملية » غير المنظورة ، في مقابل الحلول الآنية المنظورة التي تقابل مفهوم « جولدمان » « الوعي الحقيقي». وبناء على ذلك فان الباحثين في مرحلتهم الأولى يتصورون أن التناقضات المعقدة لا تساعدهم على البدء في البرنامج التعليمي ولكن هذا المفهوم يختص بهم وليس بالناس ، وفي المرحلة التالية وحدها يبدأ الباحثون في عملهم كفريق في اختيار التناقضات لاخضاعها لبحثهم النظري ، وبما أن الظواهر التي تمثل الرموز سواء كانت صوراً او اسكتشات هي الوسائل التي تساعد الباحثين في تحليلهم ، فان تحديد هذه الظواهر لا بد له ان يستدل ببعض القواعد في المهمة والا يكتفي بالوسائل البصرية المعروفة . فلا بد أن تمثل هذه المظاهر مواقف معروفة للأفراد الذين أجريت التجربة بينهم حتى يستطيعوا ان يتبينوا ما يرونه من خلال فهمهم المعتاد له لأنه من غير العملي أن يقدم للناس صوراً عن أشياء لا يعرفونها ، فرؤية الناس لواقعهم السيء السابق يمكنهم من أن يروا بسهولة لماذا يطرحون له البديل .

ومن الأمور المهمة هو أنه خلال تحضير الشريحة فان على الباحثين الا يستغرقوا أنفسهم في التفاصيل أو الاختصار المحير لأن الاسترسال في التفاصيل قد يوحي بأن الامر مجرد دعاية كما أن الاختصار والتعقيد قد يحول الأمر الى لعبة من لعب التفكير

العقلي ، ويتأكد من ذلك أن على واضعي الظاهرةالشريحية أن يلاحظوا أن اتسام عملهم بالبساطة غير المخلة يفسح المجال أمام أساليب اخرى حتى لا يبدو الأمر وكأنه عمل من أعمال الدعاية ذلك أن التنظيم الشريحي ليس عملاً دعائياً بل هو عمل يستقطب وعي الباحثين وادراكهم . ولأجل ان تقدم اختيارات كثيرة خلال عملية عرض التصور الشريحي فلا بد أن تتخذ التصورات شكل مروحة شريحية. وهذا الأسلوب يفسح المجال أمام العلاقات الجدلية بين التصورات وما يناقضها . وفي كل ذلك يجب ان تقدم التصورات في مجملها صورة كاملة للواقع والكيفية التي تتفاعل بها الأجزاء من أجل تكوين هذه الصورة الكاملة .

وخلال عملية التجسيم التصوري هذه يبدأ المشتركون في هذا البرنامج تجسيد وعيهم الخاص بالعالم ومن ثم يبدأون في تصور مواقفهم السابقة وتصوراتهم المشابهة عندما جابهوا ظروفاً مماثلة وبهذه الطريقة يصلون الى تصور جديد للواقع يتسم بسعة أفقه ، وهكذا بتعرفهم على مدى معرفتهم وتصوراتهم السابقة يبدأون في تكوين تصوراتهم ومعارفهم الجديدة وتتواصل هذه التصورات عن طريق البرنامج التعليمي الذي يفتح أمامهم فرص التجريب والتطوير وبذلك تتم السيادة للاحساس الكامن على الاحساس الحقيقي . ولكي يحمل البرنامج التصوري مزيداً من الفاعلية فلا بد أن يحتوي على مزيد من التناقضات عن المنطقة الخاضعة للدراسة من أجل ان تتصل العلاقة الجدلية في عملية التعليم.ولعل من أبرز الذين أسهموا في طريقتنا هذه « جابرييل بود » وهو موظف في الخدمة المدنية « الشيلية » ، فخلال عمله في مرحلة ما بعد الاستعداد لاحظ ان الفلاحين يهتمون بالتصورات المطروحة فقط عندما تكون هذه التصورات متعلقة باهتماماتهم ، فاذا ما اقدم المعلم على تحويل الموضوع الى مجالات اخرى صمت الفلاحون ولم يبدوا اهتماماً . وقد لاحظ ايضاً انه حتى حين يتناول الموضوع اهتمامات الفلاحين فان الفلاحين لا يركزون بصورة منظمة في الموضوع ولا يستطيعون تبين العلاقة بين حاجاتهم الفعلية وبين الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي تحول دون تحقيقها ، أو بمعنى آخر فانهم يعجزون عن تصور الامكان المتاح لهم اذا ما أصبحوا قادرين على تجاوز قيودهم الذاتية . . وعلى اثر ذلك فقد قرر « بود » أن يجرب أوضاعاً مختلفة ، وهنا يكمن اسهامه الحقيقي

حيث قام في البداية بتصوير موقف واقعي بسيط،وكان هذا الموقف يشكل محوراً أو مركزاً لمروحة من التصورات الفرعية ، ولقد أسمى التصور الأول التصور الضروري ،وبعد أن تأكد من وضوح التصور الضروري جعله مرجعاً للمتعلمين لفهم التصورات الفرعية ، وبذلك اثار فيهم الحماس والاهتمام حيث أدى بهم ذلك الى التصور المطلوب ، فبمقابلة التصور الأساسي مع التصورات الفرعية استطاع « جابر بيل بود » أن يجعل الجماعة تحس بالتصور الشمولي،وبذلك فان الأفراد الذين ظلوا منغمسين في الواقع وشاعرين في نفس الوقت بحاجات معينة استطاعوا ان يفهموا سبب ذلك،وبهذا الأسلوب امكنهم أن يذهبوا أبعد من مجرد الاحساس الواقعي الى استثارة الاحساس الكامن .

وهكذا فبمجرد ان يحضر البرنامج وتدرس وجوهه النظرية بواسطة الباحثين يبدأ الباحثون مرحلتهم التالية وهي العودة الى المنطقة ليبدأوا الحوار فيما بينهم ومن ثم يقومون بتسجيل المادة التي توصلوا اليها في المرحلة السابقة في شرائط من أجل الرجوع اليها فيما بعد . وبالاضافة الى عمل الباحث كمنسق للبرنامج فلا بد أن يصحبه عالم نفساني وآخر اجتماعي من أجل تسجيل انطباعاته المهمة وغير المهمة ، وفي خلال عملية التحليل لا يقتصر عمل المنسق على الاستماع للأفراد بل عليه أن يستثيرهم من خلال طرحه للمشكلات المتعلقة بالواقع والمتعلقة باجاباتهم أيضاً والدوافع المثيرة للعواطف . وفي هذه الطريقة يبدأ المشتركون في الاعلان عن كثير من الآراء المتعلقة بأنفسهم والعالم والآخرين،تلك التي لا يعلنونها في غير هذه المناسبة ، ففي احدى الحملات البحثية التي أجريت في « سانتياجو » قام جماعة من العاملين في احدى المزارع بمناقشة منظر رجل سكران يمشي في الشارع الى جانب ثلاثة آخرين يتجاذبون أطراف الحديث في الركن ، فعلق أفراد الفريق بقولهم ان المنتج الوحيد والذي يؤدي فائدة لبلده هو هذا السكير الذي يعود الى منزله في آخر اليوم مثقلاً بالقلق تجاه أسرته شاعراً بعدم قدرته على تلبية مطالبها بسبب ضعف دخله انه عامل ممتاز ولكنه يسكر مثلنا .

لقد كان هدف الباحث دراسة اثر الخمر في هؤلاء ، وبكل تأكيد فانه لم يكن باستطاعته الوصول الى التصور السابق لو اقتصر على توجيه الاسئلة التي أعدها

بنفسه ، فربما حاولوا في مثل هذه الحال خداعه وأنكروا عليه أنهم يشربون الخمر ولكن من خلال تعليقهم على ما شاهدوه من تجسيم لموقف واقعي فقد استطاعوا ان يتبينوا الموقف وأن يتبينوا انفسهم من خلاله وذلك ما جعلهم يقولون ما يحسون به فعلاً .

وكما يبدو فان هنالك وجهين لهذا الاعتراف ، فمن جانب تحدث الفلاحون عن العلاقة بين كونهم مستغلين يكسبون دخلا قليلاً وبين حقيقة شربهم للخمر فراراً من الواقع أو محاولة منهم لتجاوز القلق الذي يحسون به ، فهذه في نظرهم محاولة لايجاد حل عن طريق تحطيم الذات ، ومن جانب آخر فقد قام الفلاحون بمحاولة لتقويم شارب الخمر في درجة أعلى.ذلك أنه الوحيد في نظرهم الذي يخدم وطنه من خلال عمله بينما الآخرون يتكلمون . وهكذا بعد أن عرفوا السكير بدأوا في تمييز أنفسهم من خلاله كرجال يعملون ويسكرون ولا يؤثر ذلك على امتيازهم .

ومن حقك أن تقارن بين النجاح الذي حققته هذه الطريقة والفشل الذي يمنى به المعلمون الذين يتخذون من الموضوع خطبة اخلاقية ضد السكر متخذين نماذج للفضيلة لا يعتبرها هؤلاء الرجال كذلك ، ويتبين من ذلك أن أفضل أسلوب يتبع هو الأسلوب الذي يستثير وعي الناس بأوضاعهم ويولد عندهم الاحساس بتغييرها .

ولقد لاحظت في تجربة أخرى خلال نقاشي مع الفلاحين اصرارهم على المطالبة بزيادة الأجور وتكوين اتحاد لحماية مطالبهم ، فقد نوقشت ثلاثة موضوعات خلال تلك الجسة ولكن نظرتهم لم تتغير،وعليك الآن ان تتخيل معلماً قد حضر برنامجاً تعليمياً لهؤلاء الناس موضوعه « الماء في البئر » فهل ستكون هنالك استجابة له ؟

هذا نموذج من الأخطاء التي يقع فيها المعلمون والسياسيون ، فهاتان الطائفتان لا تدركان في كثير من الأحيان-ان التعليم الحواري يبدأ حين يكون هنالك

بحث عن الموضوع الذي يهم المتعلمين . وهكذا فبمجرد ان تحلل المعلومات بواسطة الفريق تبدأ المرحلة الرابعة حيث يبدأ الباحث في دراسة المحتويات المجتمعة لديه مستمعاً للشرائط التي سجلت وناظراً في المذكرات التي دونها الباحثان المختصان في العلوم الاجتماعية والنفسانية لتبدأ بعد ذلك برمجة الموضوعات بصورة مباشرة أو ضمنية على أن تصنف الموضوعات بحسب العلوم التي تنتمي اليها ، ولا يعني التصنيف توسيع البرامج بحيث يصبح كل موضوع منعزلاً عن بقية الموضوعات ، اذ المطلوب هو أن يعرف كل موضوع بالعلم الذي ينتمي اليه فيما تظل علاقته قائمة ببقية الموضوعات الأخرى ، وعلى سبيل المثال فان الموضوع المختص بالتنمية يتبع قطاع الاقتصاد ولا يعني ذلك ان يقتصر عليه اذ من الممكن النظر في هذا الموضوع أيضاً من خلال علوم الاجتماع والانثربولوجيا وعلم النفس الاجتماعي والعلوم السياسية والتربية وهلم جرا . .

وبهذا الأسلوب ينتفي النظر الى الموضوعات بشيء من التحجر اذ من المؤسف بعد تحديد الموضوعات من خلال علاقتها بالظواهر الاخرى في حياة الناس أن نضحى بكل هذا الثراء من أجل التقيد بالتخصص الدقيق .

وهكذا فبمجرد أن تتحدد الموضوعات يبدأ كل متخصص في تقديم تفاصيل موضوعه التي ترتكز على محور تتفرع عنه وحدات تعطي في تسلسلها تصوراً متكاملاً للموضوع ، وبمجرد أن يناقش كل موضوع على حدة يبدأ الآخرون في تقديم الاقتراحات التي ستتضمن في المشروع المتكامل في شكل مقالات مختصرة تكتب عن البرنامج بأسره ، فهذه المقالات ستساعد المدرسين والطلبة الذين سيعملون في الدوائر الثقافية فيما بعد . وخلال عملية تفصيل الموضوعات المجدية هذه يبدأ الباحثون في ادراك ضرورة ادخال بعض الموضوعات التي لم يقترحها الناس خلال عملية البحث ، ذلك أن ادخال مثل هذه الموضوعات قد أثبت جدواه في مثل هذه الظروف ، واذا كان هذا هو شأن الباحثين فمن حق الطلبة والاساتذة أيضاً اقتراح الموضوعات التي تظهر خلال عملية البحث وانني اسمي مثل هذه الاقتراحات بالموضوعات المتحركة وذلك نظراً لطبيعتها المتغيرة فهي اما أن تساعد على الربط بين

موضوعين في الوحدة البرامجية واما أن تساعد على توضيح العلاقة بين البرنامج العام ورؤ ية الناس للعالم ، وقد يكتب واحد من هذه الموضوعات المقترحة كمقدمة للوحدة البرامجية . ويبدو من بين تلك الموضوعات المتحركة المفهوم الانثربولوجي للثقافة وهو مفهوم يوضح دور الرجال في العالم ومع العالم كقوى مطورة لا ككائنات متأقلمة ، وبمجرد الانتهاء من عملية تفصيل الموضوعات تبدأ مرحلة تحليلها لاختيار الاسلوب الأمثل لعرضها وتقديمها على أن يكون التحليل متبعاً الطريقة البسيطة أو المركبة ، وفيما نعلم فان الطريقة البسيطة تقوم على استخدام الصور والمشافهة والوسائل السمعية في حين أن الطريقة المركبة تستخدم وسائل مختلفة اما استخدام الصور فيعتمد على المادة المحللة ، وما اذا كان المتعلمون اميين أم لا .

وهكذا فبعد أن تحلل الموضوعات يبدأ في تحضير الوسائل المكونة من الصور والأفلام والملصقات والكتب وما الى ذلك.وقد يتخذ الفريق بعض الموضوعات للنظر فيها من خلال الاخصائيين الخارجيين ، فاذا كان الموضوع عن التنمية كان بامكان الفريق أن يتصل باقتصاديين ينتميان الى مدرستين مختلفتين يدعوهما للتحدث في هذا الموضوع بلغة يفهمها الدارسون ، فاذا قبل المتحدثان الحديث يسجل لهما لقاء مدته ربع الساعة على أن يتم تصوير كل متحدث منهما خلال استجوابه وعندما يقدم الشريط للدائرة الثقافية يوضح لهم ما انتجه كل متحدث وعمله السابق ثم عمله الحالي ، وخلال ذلك تظهر صورته على الشاشة ، واذا كان المتحدث استاذا جامعيا يمكن أن يسأل الدارسون عما يعرفونه عن الجامعات وما يتوقعونه منها وبما أن الفريق قد أخطر باجراء مناقشة بعد سماع المقابلتين فان من واجب الباحثين اخطار المتحدثين بوجهة نظر الدارسين ، وبهذه الطريقة يمكن ربط الاخصائيين بالناس كما يمكن اعطاء الناس فرصة السماع ونقد الأخصائيين ، وقد تقدم بعض الموضوعات عن طريق الدراما التي تخضع للمناقشة بعد ذلك ، ومن الوسائل الأخرى التي تتبع المناقشة حول المجلات والجرائد وبعض فصول الكتب وكما هو الشأن مع الاخصائيين تقدم نبذة عن الكاتب في البداية ثم يقدم بعد ذلك موضوع كتابته وكما هو الحال فلا غنى عن مناقشة افتتاحيات الجرائد عقب كل مناسبة مركزين على

الاسباب التي تجعل الجرائد تتخذ مواقف مختلفة من المشكلة الواحدة ، فهذا الأسلوب يساعد على تقوية ملكة النقد كما يساعد على عدم التعامل مع الجرائد بسلبية وتأكيد التعامل معها من منطلق أناس يبحثون عن الحرية .

وهكذا فبعد أن أعدت كل المواد المطلوبة وقدم لها يستعد فريق المعلمين لتقديم الموضوعات للناس وهي في الحقيقة موضوعاتهم هـم غير أنها تقدم لهم بطريقة منظمة ومجسمة ، وبهذا فان الموضوعات التي أتت من الناس تعود اليهم ليس بصفتها مادة يراد تخزينها في عقولهم بل كمشكلات يتوجب عليهم حلها ، وهنا يبدأ المعلم الأساسي في توضيح الأهداف العامة لبرنامج الحملة وسوف لن يجد المشاركون في هذا البرنامج شيئاً غريباً لأنه قد نبع منهم ، كما يوضح المعلم ضرورة الموضوعات المتحركة وأهميتها ، فاذا لم يتمكن الباحثون من اجراء البحث الذي شرحناه بسبب ضعف الامكانات المادية فيمكنهم بأقل قدر من الموضوعات تخير نظم معينة لبحثها . وبامكانهم أن يبدأوا بالموضوعات التقديمية والتي توحي مزيداً من البحث الموضوعي ، ومن أهم الموضوعات التي لا غنى عنها المفهوم الانثربلوجي للثقافة فسواء كان الرجال فلاحين أو عمالاً في مرحلة تعلم القراءة أو تجاوزوا هذه المرحلة فان بداية البحث عن المعرفة تبدأ بمناقشة المفهوم لانهم بمناقشتهم لمفهوم الثقافة يعكسون مدى وعيهم بالواقع الذي يتضمن كثيراً من الموضوعات ، فمناقشة هذا الموضوع تفتح المجال لمناقشة غيره من الموضوعات حيث يبدأ الانسان في النظر اليها بعمق وذلك يفتح الباب لمناقشة مزيد من الموضوعات .

وهكذا فمن خلال الخبرة التي كونتها أستطيع أن اؤكد ان مناقشة مفهوم الثقافة تمكن من القاء مزيد من الضوء على موضوعات البرنامج التعليمي ، وبالاضافة الى ذلك فانه بعد حوار يستمر لعدة أيام مع المشتركين في الحلقة الثقافية يمكن للمعلمين أن يسألوا المشاركين مباشرة عما يريدون مناقشته الى جانب هذه الموضوعات ، وبمجرد ان يجيب المشاركون تسجل اجابة كل فرد وتعرض كمشكلة أمام المشاركين وقد يقول أحد المشاركين على سبيل المثال : أريد أن نتحدث عن القومية وبعد أن يسجل المعلم الموضوع يقول وما المقصود بالقومية ؟ ولماذا يهمنا أن نناقش موضوعها ؟

لقد بدا لي من خلال تجربتي أنه عندما يطرح الموضوع للجماعة كمشكلة تبدأ موضوعات أخرى في الظهور ، فاذا كانت هنالك منطقة تجتمع فيها ثلاثون حلقة في ليلة واحدة فسيجد الفريق المركزي مادة غنية لدراستها .

وعلى وجه العموم فان المسألة المهمة في التعليم الذي يستهدف الحرية هو أن يشعر الرجال فيه كأساتذتهم أنهم يسمعون صوت أنفسهم وصوت زملائهم في مسائل تختص بالعالم الذي يعيشون فيه ، فهذا النوع من التعليم ينطلق من قناعة فحواها أن البرنامج التعليمي لا يكون تعليمياً ما لم يتخذ من الحوار مع الناس اساساً له فهو يقدم أسلوب تعليم المقهورين بالطريقة التي يسهم فيها المقهورون أنفسهم وبصورة ايجابية في العملية التعليمية .

الفصل الرابع

نظرية القهر ونظرية الحوار الثوري

سيكون حديثنا في هذا الفصل الذي نحلل فيه نظريات الفاعلية الثقافية المبنية على فكرتي الحوار واللاحوار حافلاً بالاشارات الى ما تعرضنا اليه في فصولنا السابقة وذلك رغبة منا في التوسع والتأكيد ، وسوف أبدأ بحقيقة أولية وهي أن الرجال بصفتهم كائنات تخوض نضالاً يختلفون عن فصائل الحيوان الأخرى التي هي كائنات محكوم عليهابالحركة ذات الطبيعة المجردة المحدودة فالحيوانات لا تملك أهدافاً تسير عليها ، أما الناس فانهم يختلفون بالضرورة لأنهم يستطيعون تحديد أهدافهم الخاصة التي يغيرون بها البيئة التي يعيشون فيها . وما ذكرناه يلقي ضوءاً على الأسباب التي تجعل الحيوانات تعيش في البيئات المناسبة لها دون احتياج الى التحاور فيما بينها ، وذلك عكس طبيعة الرجال الذين لا يستطيعون العيش إلا في بيئة قوامها الوعي والحركة الفاعلة التي تحدث التغيير المتصل وتحتاج دوماً الى نوع من التنظير يحكم مسيرتها،ذلك أن حركة الرجال في جوهرها ضرب من النظرية والتطبيق أو هي رؤ ية وحركة ، وكما أسلفنا في الفصل الثاني فإن هذه العلاقة بين الحركة والفعل لا يمكن أن تقلص لتقتصر على أي من هذين الطرفين .

يقول لينين « بدون نظرية ثورية لا يمكن أن يتولد عمل ثوري » ويعني هذا أن النضال الثوري ليس في مقدوره أن يقتصر على الناحية النظرية وحدها مغفلاً الجانب العملي أو العكس ، ذلك أن النضال الثوري زواج شرعي تقوم مبادئه على دعامتي العمل والتنظير بحيث يتخذ من الواقع المراد تغييره هدفا له . ومن الخطأ ان يعتبر القادة أنفسهم طبقة من المفكرين فيما يعتبرون المقهورين شرذمة من العاملين تمتثل لأوامرهم ، فالعمل الصادق من أجل ازالة ظروف القهر يستوجب تصوراً نظريا يوضح منهج التغيير،ومثل هذا العمل لا يمكن أن يخطىء دور الرجال في هذه العملية .

ومن البدهي ان نقول : ليس من حق القادة في عملية التغيير تحويل المقهورين الى مجرد كائنات أو حرمانهم من حقهم الطبيعي في ادراك دورهم المناط بهم يتخذون من الوهم الخادع عوضاً لهم عن ذلك ، فمثل هذا الأسلوب . هو في الواقع تكريس للقهر والاستغلال اللذين يمارسهما في هذه المرة من يزعمون أنهم أعداء القهر .

وتبعاً لذلك ، فان دور المقهورين يقوم على تحمل المسئولية الثورية والاطلاع بأعباء التنسيق خلال عملية النضال وقد يقومون في بعض الأحيان بدور الموجهين ، أما اولئك الذين يجحدون دور المقهورين الحقيقي في النضال فانهم يهزمون الغايات التي يسعون الى تحقيقها.ذلك أن القادة الذين يفرضون كلمتهم على الجماهير انما هم في الحقيقة يزورون الثورة بايجادهم نوعاً من التناقض بين الأهداف وأساليب التحقيق ، وعلى عكس ذلك فإن القادة المخلصين ـ حقاً ـ لقضية الحرية ، فان أقوالهم وأفعالهم تتحد في جميع الأحوال والظروف مع أقوال وأفعال غيرهم من الرجال ، فالعمل الثوري الحقيقي لا بد له في النهاية أن يقف معارضاً لطغيان الصفوة المتحكمة لأن هذه الصفوة بطبيعتها تكره العلاقة الجدلية في الحوار ، واذاً فليس من الثورية في شيء تسفيه أحلام الرجال أو جعل مقياس الثورية هو مجرد اتباع القادة في القول والفعل لأن الثورية الحقة انما هي ضرب من المشاركة لا يمكن أن يتحول الرجال فيه الى ممتلكات خاصة تأتمر بامرة القادة ، فالاستقلال القائم على الشعارات وغسل الأدمغة والمليشيات والتوجيه اللاإرادي لا يمكن أن يجسد الثورة الحقيقية ، فهذه المظاهر جميعاً من مقومات السيطرة وليست من مقومات التحرير. فالذي يرغب في السيطرة ليس أمامه من خيار إلا أن ينكر على الرجال حقهم الطبيعي في العمل والكلام وحرية الفكر لأن الدخول معهم في علاقة حوارية لا يعني سوى أحد أمرين اما انه على استعداد للتنازل عن شيء من سيطرته من أجل مشاركة الناس أهدافهم واما أنه قد فقد سيطرته نتيجة حسابات خاطئة ، وباختصار فان القادة الثوريين الذين لا يرغبون في التحاور مع الناس اما أنهم قد اكتسبوا صفات القاهرين فلم يعودوا بالتالي ثوريين حقيقيين واما أنهم غدوا مضللين في تصورهم لطبيعة دورهم الحقيقى وأصبحوا بذلك أسرى لرؤيتهم المذهبية الضيقة،ويعني ذلك

أيضاً أنهم لم يعودوا ثوريين حقيقيين،وفي كلا الحالين تتأكد الحقيقة الباقية وهي أن الثوريين قد يصلون الى السلطة ولكن وصولهم اليها لا يعني خاتمة المطاف ، فالذي يصل الى السلطة ويرفض أن يتحاور مع الناس يغدو في شك من قدرته على تحقيق أهدافه .

ولسنا في حاجة الى تأكيد دور المقهورين الهام في المشاركة في العمل الثوري بالوعي والقدرة على النقد ، فهذا هو سبيلهم الطبيعي كمحدثين للتغيير الثوري . أما اذا جردوا أنفسهم أو جردوا من هذا الدور تحت وهم وضعهم القديم المستبطن للقهر والقاهرين فإنهم سيعيشون وهماً جديداً وهو أنهم قد تمكنوا من السلطة في الوقت الذي هي بعيدة عنهم كل البعد ، وقد تفسح هذه الازدواجية المجال أمام المذهبية التي تؤدي بالضرورة الى البيرقراطية التي تقضي في النهاية على الثورة . ويترتب على ذلك أنه ما لم يتدارك المقهورون هذه الازدواجية خلال عملهم الثوري فإن مشاركتهم ستكون ضرباً من الانتقام أكثر منها بحثاً عن الحرية والثورة،وسيكون عملهم موجهاً نحو السيطرة أكثر منه موجهاً نحو التحرير .

واذا كان من الطبيعي أن يواجه القادة الصادقون بعض المصاعب خلال عملهم الثوري فإن هذه المصاعب ستكون مضاعفة أمام أولئك القادة الذين يطمحون في أن يقوموا بالدور الثوري نيابة عن الجماهير ذلك أن القيام بمثل هذا العمل لا معنى له سوى أن القادة يريدون لثورتهم أن تنجح دون مشاركة الجماهير فيها ويستوجب هذا الاتجاه بالضرورة تجريد الجماهير واخضاعها لنفس ظروف القهر التي حاولت أن تتخلص منها فيما سبق .

ويبدو هنا أن الحوار مع الجماهير أمر ضروري لكل ثورة حقيقية وذلك في الواقع ما يميز الثورة عن الانقلاب ، فمن الطبيعي الا يتوقع الانسان مثل هذه العلاقة الحوارية مع الانقلابيين ، فالانقلابيون لا هم لهم الا أن يكتسبوا الشرعية بكل أساليب الخداع الممكنة ، أما الثوريون فلا بد لهم عاجلاً أو آجلاً أن يقيموا نوعاً من الحوار الشجاع مع الناس،ذلك أن شرعية وجودهم انما يستمدونها من ذلك الحوار ، فهم لا يخافون آراء الناس أو مشاركتهم الفعالة في السلطة،وهم بالتالي لا

يجدون حرجاً في التحدث اليهم عن انجازاتهم واخفاقاتهم ولا يجدون حرجاً في التحدث اليهم عن حساباتهم الخاطئة والمصاعب التي يواجهونها ، وبقدر ما تكون السرعة في بدء الحوار بقدر ما تكتسب الثورة أصالتها وشرعيتها ، واذا كان الحوار ضرورياً من أجل الثورة فانه بنفس القدر ضروري من أجل الرجال أنفسهم لانه بواسطة هذا النوع من الاتصال يتمكنون من تحقيق وجودهم الانساني،ذلك أن الانسان بطبيعته كائن متحاور،أما الذين يعملون لتقويض ظاهرة الحوار هذه فلا يمكن أن يكونوا من الثوريين لأن ظاهرة التقويض من سمة مجتمع القاهرين ، واستطيع الآن أن أؤكد أن العمل الثوري لا يمكن أن يتم مجزأً بحيث تخصص احدى مراحله للوعي والأخرى للعمل ، فالعمل والوعي في اطار النضال الثوري انما يتحققان في نفس المرحلة،ولكن قد يؤكد التحليل الموضوعي أن بعض أنواع العمل يستحيل تنفيذها في الوقت الراهن.والذين يرون هذه الرؤ ية لا يمكن أن يتهموا بالتقاعس أو عدم الفاعلية لأن الرؤ ية في حد ذاتها هي نوع من العمل .

ولقد أوضحت فيما سبق أن محاولة الاستاذ والطالب فهم موضوع المعرفة لا تنتهي بهما عند ادراك الموضوع وحسب،ذلك أن الممارسة في حد ذاتها تنمي القدرة على الفهم وهذا هو الحال بالنسبة للفعل الثوري حيث يشترك المقهورون والقادة في عمل ثوري واحد تتوسطهم الوقائع الحقيقية وبذلك لا يستطيع أحد أن يتحدث عن القائم أو القائمين بالعمل دون ربط القادة والمقودين في علاقة جدلية حوارية ، واذا كان هذا القول يوحي بتجزئة القائمين بامر الثورة فان المقصود منه في الحقيقة هو وحدتهم لأنه بدون هذه الوحدة تتأكد التجزئة الحقيقية حيث القادة في صعيد والجماهير في صعيد آخر يكرسون حقيقة القهر الذي يطمحون الى ازالته .

ان محاولة عرقلة العمل الجماعي والحوار مع الجماهير تحت دعوى التنظيم أو تكريس هيبة الثورة هو في حقيقته خوف من الحرية أو هو في حقيقته عدم ثقة بالجماهير ولكن تبقى الحقيقة الأزلية وهي أنه ما لم يثق القادة في الجماهير فلن تتمكن الجماهير من تحقيق حريتها . فالثورة التي تقوم على عدم الثقة بالجماهير لا تحقق أهداف الجماهير وانما تحقق أهداف القادة وحدهم ويتأكد من ذلك أن الثورة لا يقوم

بها القادة من أجل الجماهير ولا تقوم بها الجماهير من أجل القادة وانما يقوم بها الطرفان في وحدة متلاحمة ولا يمكن لهذه الوحدة أن تتحقق الا حين يشملها القادة بتواضعهم وحبهم وشجاعتهم في مواجهة الجماهير ، ومن الضروري أن نعترف بأنه ليس كل الرجال يمتلكون مثل هذه الشجاعة،والذين لا يملكون الشجاعة ليس في وسعهم معاملة الآخرين الا كأشياء وهم بدل أن يبعثوا في الأرض الحياة فانهم يقتلون الحياة، وبدل أن يقبلوا نحوها فإنهم يدبرون عنها،وهذا السلوك في صميمه هو من مقومات القهر.وقد يظن البعض أن الدعوة الى الحوار مثالية ساذجة ونؤكد لهؤلاء أن ليس ثمة شيء حقيقي كأن يتعامل الرجال مع الرجال وأن يشتركوا جميعاً في التعامل مع العالم لأنه بدون هذا الأسلوب فان العلاقة الوحيدة التي ستكون ماثلة هي علاقة القاهرين والمقهورين .

ان الثورة الحقيقية هي محاولة لتغيير العالم الذي امتهنت فيه كرامة الانسان ولن يقوم بهذه الثورة أولئك المستفيدون من هذا الوضع وانما يقوم بها المقهورون مع قيادتهم ولا تستطيع هذه القيادة أن تقوم بدورها المطلوب الا اذا كرست علاقاتها مع الجماهير على الوجه الذي ذكرناه،على أن كثيرين من الذين ينظرون الى العالم نظرة ميكانيكية لا يستطيعون أن يروا مواقف الرجال تتأثر الى حد كبير بمدى احساسهم بالعالم الذي يعيشون فيه . ففي نظر هؤلاء من الممكن تغيير العالم بالاساليب الميكانيكية دون اهتمام بأحاسيس الناس وأثرها في العمل الثوري . ولكن الحقيقة التي نؤكدها دائماً هي أنه ليس من حقيقة تاريخية الا وهي انسانية في ذات الوقت، فليس هنالك تاريخ بدون رجال وليس هنالك تاريخ من أجل الرجال ، فالتاريخ يصنعه الرجال وهو كذلك يصنع الرجال،وعندما يستلب الرجال ويجردون من حقهم في المشاركة التاريخية يصبحون بالضرورة واقعين تحت السيطرة والقهر ولا يمكن لهم تجاوز هذا الواقع الا حينما يشاركون في العمل الثوري بوعي ولا يخضعون له كمجرد أشياء . وليس من شك في أنه من المثالية أن نقول ان مجرد تبصر الرجال بواقعهم المقهور واكتشافهم لحقيقة وضعهم كأشياء كفيل بتغيير واقعهم ، فليس الأمر على هذا النحو من البساطة وانما هو كما قال أحد مساعديّ « الرجال في لحظة الاكتشاف يمارسون مخاضاً حقيقياً هو الذى سيقودهم في النهاية لتأكيد وضعهم الجديد » .

ومن ناحية أخرى فمن الخطأ أن نعتبر مجرد الحركة هي السبيل الى الثورة لأن الحركة لا بد لها أن تقترن بالقدرة على النقد الواعي الذي يؤدي الى مزيد من تنظيم الفكر بحيث ينتقل الانسان من المعرفة الساذجة الى درجة أعلى من الفكر واذا ظل قادة الثورة ينكرون على الناس ويؤكدون قدراتهم الخاصة فانهم في الحقيقة سيدمرون هذه القدرات لأنهم لا يستطيعون أن يفكروا دون مشاركة الجماهير لهم في هذا التفكير .

حقاً نحن نعلم أن الصفوة المسيطرة تفكر بدون أن تشاركها الجماهير وهي لا تسمح لنفسها بالفشل في ممارسة ترف التفكير لأن التفكير يقودها الى معرفة أحسن السبل لتأكيد سيطرتها ، وهكذا فإن أي حوار أو اتصال بين هذه الصفوة والجماهير يتحول الى مجرد بيانات ايداعية لا تستهدف سوى تدجين المقهورين .

ومن حقنا أن نسأل لماذا لا تشعر الصفوة المتسلطة بالضعف وهي تفتقر الى مشاركة الناس لها في التفكير ؟ والاجابة هي أن الناس يمتلكون المقابل المعاكس لهذه الصفوة فاذا امتلك الناس قدرة التفكير انتفى التناقض القائم بين الصفوة والجماهير وبالتالي يتوجب على الصفوة أن تفقد دورها في التسلط ، لذلك فمن وجهة نظر المتسلطين لا بد أن يكون هنالك تفكير يحكم عدم التفكير الذي تمارسه الجماهير .

يقول « نيبور » :

«لقد أثار المستر جيدي الذي أصبح رئيساً للجمعية الملكية بعض الاعتراضات التي يمكن أن تلاحظ في كل البلاد فعلى الرغم من وجاهة النظرية ، فإن المشروع التعليمي اذا ما أعطى للطبقات العاملة الفقيرة فقد يكون متعارضاً مع أخلاقياتهم وسعادتهم لأنه يعلمهم أن يكرهوا أنفسهم بدل أن يعلمهم كيف يصبحون زراعا وعمالاً ممتازين ، كذلك فانه بدل أن يعلمهم الخضوع فانه يعلمهم الجنوح وكما هو الحال في الدول الصناعية فانه يعلمهم قراءة منشورات التمرد والكتب الفارغة والمطبوعات التي تعارض المسيحية . انه يعلمهم اساءة الأدب مع رؤسائهم وسيجد المشرعون أنفسهم بعد بضع سنوات بحاجة الى استخدام اليد القوية ضدهم .

فما أراده المستر جيدي هو ما أرادته الصفوة دون أن تعلن عن رأيها في معارضة

التعليم بصراحة فقد أراد جيدي أن يظل الناس غير قادرين على التفكير ونظراً لأنه وأمثاله في جميع الحقب بصفتهم من القاهرين الذين لا يمكنهم أن يفكروا مع الجماهير فقد أرادوا لهذه الجماهير الا تتعلم التفكير لنفسها . ولكن وضع المستر جيدي لا يماثل وضع القادة الثوريين ، فالقادة الثوريون ان لم يفكروا مع الناس فقدوا حيويتهم الثورية ذلك أن الناس محل اهتمامهم الاعظم وليسوا في نظرهم مجرد أشياء يفكرون فيها ، وعلى الرغم من أن القادة الثوريين أيضاً يفكرون في الناس من أجل فهمهم بطريقة أفضل ، فان هذا التفكير يختلف عن تفكير الصفوة لأن محوره يتركز في تحرير الناس وليس احكام السيطرة عليهم ويمكننا أن نقول على وجه الاجمال ان تفكير الصفوة هو تفكير السادة وأما تفكير الثوريين فهو تفكير الرفقاء . ومن البداهة أن نقول ان السيطرة تستوجب قطبين أحدهما يسيطر والآخر يُستغل ، وبين القطبين تناقض لا يلتئم وليس من سبيل الى تصحيح هذا الواقع الا بالثورة التي تستهدف التحرير والثورة تستوجب ظهور طبقة من القادة تصنعهم المحاولة والتجربة فاذا لم يكن هؤلاء القادة منحازين الى المقهورين فان ثورتهم لن تكون ثورة حقيقية ، ولا يتم انحياز هؤلاء القادة الى الجماهير لمجرد التفكير عنهم كما يفعل المسيطرون وانما يتم بالتفكير معهم لأنهم ان لم يفعلوا ذلك لن يكونوا قادة ثوريين حقاً .

أما خلال عملية القهر فان الصفوة المتسلطة تقتات من أكباد هؤلاء الأحياء الأموات ذلك أنها تحس وجودها في العلاقة الفوقانية معهم وليس هذا شأن الثوريين الذين قدرهم أن يموتوا من أجل أن يبعثوا من جديد في حركة المقهورين .

ونستطيع أن نقول بثقة ان عملية القهر تستوجب طرفين أحدهما قاهر والآخر مقهور ولكننا لا نستطيع ان نقول انه خلال عملية الثورة فان هنالك شخصاً يقوم بتحرير شخص آخر أو أن هنالك شخصاً يكتفي بتحرير نفسه فقط لأن الحقيقة هي أن كل الرجال يتبادلون التحرير في عمل جماعي،ولا نقصد بذلك أن نقلل من قيمة القيادة الثورية بل على العكس من ذلك فنحن نؤكد أهمية هذه القيادة فما من شيء يفضل حياة الانسان مع المقهورين يشاركهم نضالهم من أجل الحرية ، فمثل هذه المشاركة جديرة بأن تمنح القادة شعوراً فائقاً بالسعادة ، ونستطيع أن نقول على وجه

الاجمال ان ما يستطيع أن يفعله القادة الثوريون بحكم طبيعتهم هو ما تفشل الصفوة المتسلطة في صنعه بحكم تكوينها ، فالحقيقة الدائمة هي أن أي عمل تقوم به الصفوة المتسلطة تجاه المقهورين انما هو في جوهره كرم زائف ، وذلك ما لا يقدر القادة الثوريون على ممارسته بحكم تكوينهم . وهكذا فبينما تزدهر الصفوة بسحقها للمقهورين تحت الأقدام فان القادة الثوريين يزدهرون فقط عندما يعملون مع الناس. واستناداً على هذا الفهم فلا يمكن أن يكون أسلوب القاهرين انسانياً ، وعلى العكس من ذلك فان منهج الثوريين يتسم بانسانيته الدائمة ، وفي كلا الحالين يمكن الاستفادة من وظائف العلم . فبينما يتخذ القاهرون من العلم والتكنولوجيا وسائل يحولون بها الناس الى مجرد أشياء فان الثوريين يتخذون من العلم سلاحاً لعكس هذا الغرض لأنهم يستهدفون تحويل الرجال الى بشر .

وهكذا فلا يمكن للثورة العلمية ذات الطبيعة الانسانية أن تحول الناس الى مجرد أشياء خاضعة للتحليل السلوكي لأن النظر الى الانسان من هذه الزاوية يعني وقوع العلم في أحد فخاخ ايدلوجية القهر والتي تكرس الجهل العام ، وتعني مثل هذه الخرافة أن هنالك فرداً ما يحكم على الآخرين بالجهل بينما هو وطبقته وحدهم الذين يعلمون أو الذين ولدوا ليعلموا ، إنه لا يرى الحقيقة إلا حين تقول طبقته كلمتها ولذلك فهو يحاول أن يفرض هذه الكلمة على الآخرين الذين هم المقهورون المجردون من قول كلمتهم .

ان اولئك السارقين لكلمات الآخرين ينمون في داخل أنفسهم شعوراً عميقاً بالشك فيما يقوله الآخرون ، فالآخرون في نظر هؤلاء غير قادرين بل عاجزين عن أن تكون لهم كلمة حقيقية لذلك فهم يجنحون الى قول كلمتهم على الدوام دون تكليف أنفسهم السماع الى أولئك المستلبين،وهكذا يتعودون على أن يكونوا في موضع القوة حيث يقودون ويأمرون ولا تحلو لهم الحياة الا حين يكونون آمرين،فهل يمكن لامثال هؤلاء أن يتحاوروا مع الآخرين ؟

وعلى عكس ذلك فإن قادة الثورة العلمية ذات الطبيعة الانسانية لا يؤمنون بخرافة جهل الجماهير ولا يميلون الى قبولها فهم لا يصدقون أنهم يحتكرون المعرفة

وحدهم،ذلك أن مجرد التفكير في هذا الاتجاه يعني عدم الثقة بالجماهير . وعلى الرغم من أن هؤلاء القادة يدركون بوعيهم الثوري أنهم يملكون رؤية ثورية تفوق تلك التي عند الجماهير ، فانهم يحجمون عن فرض رؤيتهم تلك على الناس بل يحجمون عن ملء عقولهم بالشعارات ويؤثرون على ذلك كله أسلوب التحاور مع الناس فيخصبون بذلك معرفة الناس ويجعلونها تزدهر من خلال معرفتهم الناقدة ليتحول ذلك كله الى وعي بالواقع المعاش.ولعله من السذاجة أن نفترض أن الصفوة القاهرة قادرة على القيام بمثل هذا النوع من الحوار وهي التي تنطلق في حكمها على الناس من مفهوم « الجهل العام » . ذلك مستحيل بالنسبة لهذه الطبقة ، أما الثوريون فانهم لا يستطيعون أن يتناقضوا مع مواقفهم الثورية بقبول خرافة الجهل العام ، كذلك فمهمتهم لا تقتصر على طرح هذه الخرافة كمشكلة بل يتوجب عليهم اقرانها بجميع الخرافات التي تستخدمها الصفوة المتحكمة كي تمارس دورها القهري من أجل ايجاد الحلول لها ، واذا ما آثر القادة الثوريون اتخاذ أسلوب القاهرين فستنعكس اثارهم على الناس باحدى طريقين ، فإما أن تقوم الشعارات الجديدة بتدجين الناس كما يحدث في بعض الظروف التاريخية واما أن تشعرهم بالخوف حين تهز القهر المستبطن في أعماقهم ، وفي كلا الحالين فلن يكون سلوك القادة ثورياً ، اذ في الحالة الأولى تصبح الثورة مجرد وهم أو سراب وفي الحالة الثانية فانها ستصبح أمراً مستحيلاً.ونحن لا نشك في أن هنالك بعض الثوريين من أصحاب النوايا الحسنة يعتقدون أن طريق الحوار طويل وأفضل منه طريق البيانات ويذهب هؤلاء الى أبعد من ذلك حين يقولون ان التعليم التحريري لا يمكن أن يتم الا حين تتولى القيادة الثورية السلطة ، فالسلطة عند هؤلاء يجب أن تسبق التعليم .

ان امثال هؤلاء الرجال يؤمنون بالتحاور مع الناس ولكنهم لا يؤمنون أن مثل هذا التحاور يمكن أن يتم قبل أن يسيطروا على السلطة وكأنهم حين ينكرون ضرورة الحوار التعليمي قبل استلام السلطة ينكرون في ذات الوقت الصفة التعليمية للثورة ـ ذاتها ـ كانجاز ثقافي يعد الناس لمرحلة الثورة الثقافية وبالتالي فان هؤلاء الرجال يخلطون بين هذا النوع من التثقيف وبين التعليم الذي تمارسه السلطة الثورية بعد استلامها مقاليد الأمور .

لقد أكدت مراراً أنه من السذاجة أن نتوقع من الصفوة المتسلطة أن تقوم بمهمة تعليمية تؤدي الى تحرير الانسان وعلى عكس ذلك فعلينا دائماً أن ندرك أن الثورة تتميز دائماً بطبيعتها التعليمية وما لحظة استلام السلطة الا مرحلة من مراحل العمل الثوري ، وعلى الرغم من أهمية هذه المرحلة ، فإن المفهوم الديناميكي للثورة يحتم علينا ألا نجعلها لحظة فاصلة بين ما قبل وما بعد في العملية الثورية .

ولما كانت الثورة تنبثق موضوعية فانها في مجملها تحاول أن تتجاوز مجتمع القهر لتقيم مكانه مجتمع الرجال الذين يمارسون تجربة متصلة من أجل تحقيق حريتهم ، وانطلاقاً من هذا المفهوم فان الطبيعة الحوارية للثورة والتي تجعل منها عملاً ثقافياً لا بد وان تتمثل في جميع الظروف ، فهذه الطبيعة الحوارية هي التي تصحح مسار الثورة وتحول بينها وبين أن تصبح مجرد مؤسسات وتنظيمات بيروقراطية خاوية من المضمون فالذين يجنحون بالثورة الى مثل هذه الاتجاهات في الغالب من الثوريين الذين تحولوا الى ظاهرات رجعية ، واذا كان في مقدور الناس أن يصلوا الى السلطة من غير أن تكون لهم خبرة بها ـ بحسب مفهوم هؤلاء ـ فما الذي يمنعهم من أن يمارسوا الحوار قبل أن تكون لهم خبرة به .

ان العملية الثورية كما أسلفنا هي عملية ديناميكية وهذه الصفة وحدها هي التي تمكن القادة والجماهير معاً من تعلم أساليب الحوار وأساليب استخدام السلطة ، فالرجال يتعلمون السباحة في الماء ولا يتعلمونها بالجلوس في المكتبات .

واستناداً على ما ذكرناه يتضح أن التحاور مع الناس ليس ضرباً من التنازل أو الهبة وليس هو وسيلة لتأمين السيطرة بل هو عامل مهم لمعرفة العالم من أجل استعادة انسانية الانسان وكما يقول « ماجو بتروفيك » :

« ان العمل الحر هو ذاك الذي يستطيع به الانسان أن يغير العالم ونفسه في ذات الوقت ومن أخص مستلزمات الحرية أن يدرك الانسان القيود التي تحد قدراته كما عليه أن يدرك طاقة الابداع الانساني ذلك أن النضال من أجل المجتمع الحر لا يمكن له أن يتحقق ما لم يوفر الانسان لنفسه أعلى درجات الحرية ».

وإذا قبلنا الرأي السابق وجب علينا أن نعلم أن الثورة عملية تعليمية بالضرورة وذلك ما يحتم أن تكون الطريق اليها مفتوحة يسير فيها الناس دون أن تضع العراقيل امامهم ، وذلك ما يحتم أن يكون العمل الثوري قائماً على الثقة بالناس والا يترك مجالاً لعدم الثقة بهم وكما قال لينين :

« فبقدر ما تحتاج الثورة الى التنظير فان قادتها ملزمون بأن يقفوا الى جانب الناس مشاركين لهم في مقاومة الطغيان ».

واعتماداً على ما ذكرناه من فرضيات نبدأ عرضاً مفصلاً لنظريات العمل الحواري واللاحواري في العمل الثوري .

الغزو :

من أول ما يلاحظه الانسان في العمل اللاحواري ظاهرة الغزو أو الاستلاب ، فالذي لا يؤمن بأسلوب الحوار لا يستهدف في علاقاته مع الآخرين سوى هزيمتهم بكل الوسائل المتاحة ، العنيفة منها والمهذبة ، القامعة أو الأبوية . وكما هو معلوم فان الغزو بطبيعته يستوجب قطبين أحدهما غاز والأخرُ مغزو أو بتعبير اخر فانه يستوجب سالباً ومستلباً أو هازماً ومهزوماً ، ويعمد الغازي في كل الظروف الى فرض أهدافه على المغزو حتى يجعله جزءاً من ممتلكاته الخاصة،ولكي يمارس المغزو حياته فانه يستبطن شخصية الغازي في داخله وبذلك يمارس وجوداً مزدوجاً يحوله من طبيعته الانسانية الى مجرد شيء أو الى جثة هامدة بلا حياة.واذا كانت تلك هي النتيجة الحتمية للعمل اللاحواري ، فان الحوار على العكس من ذلك تماماً يقود الى أن يمارس الانسان كينونته دون ازدواج وينبغي أن نذكر دائماً أن اتصاف الرجل بالنزعة الحوارية أو اللاحوارية لا يتم في فراغ وانما يكون في هذا العالم الذي نعيش فيه حيث لا يتدرج الرجل من طبيعته اللاحوارية الى طبيعته القاهرة بل يمارس القهر واللاحوار في وقت واحد . وهكذا فان ظروف القهر تحتم الا يكون القاهر حوارياً ذلك أنه يستخدم القهر لتجريد المقهور من احساسه بالعالم وبذلك يتمكن هو من تحقيق مصالحه الخاصة.ونستطيع أن نقول على وجه الاجمال انه بمجرد أن يتولد الموقف

القهري فان اللاحوار يصبح ضرورة من أجل الحفاظ عليه . وبنفس المنطق فما دام العمل التحريري هو حواري بالضرورة فان الحوار لا يمكن له أن يأتي في مرحلة لاحقة من مراحل العمل بل يجب أن يكون مساوقاً لذلك العمل ، كذلك ولما كان التحرير عملاً ذا طبيعة دائمة ومتصلة استوجب أن يكون الحوار أيضاً ذا طبيعة متصلة ودائمة في العمل الثوري . ومن هنا يتبين لنا أن الرغبة في الغزو أو بالأصح ضرورة الغزو انما هي لازمة أساسية في العمل اللاحواري ولأجل ان يتحقق الغزو فان القاهر يجنح الى تحطيم قدرة الرجال في تمييز العالم ونظراً لأن القاهرين لا يستطيعون تحقيق ذلك بصورة كاملة فهم يجنحون الى خلق احساس خرافي بالعالم حيث يقدمون للمقهورين عالماً من الخداع يزيد من سلبيتهم واغترابهم ويتبعون في تحقيق هذه الغاية أساليب كثيرة من أجل أن يجعلوا العالم يبدو في نظر المقهورين وكأنه كتلة جامدة واجبهم الاساسي هو التأقلم معها . وكما أسلفنا فان تحقيق هذه الغاية يتم عن طريق التضليل الذي يودعه القاهرون في عقول المقهورين،ومن أهم أساليب التضليل ايهام المقهورين بأن مجتمع القهر هو مجتمع الحرية حيث الرجال جميعهم أحرار يحق لكل منهم أن يعمل في المكان الذي يريده كما يحق لكل منهم أن يختار الرئيس الذي يريده وان لم يعجبه رئيس ما انصرف منه الى رئيس آخر ، ومن بين الخرافات أيضاً زعم القاهرين أن مجتمعهم يحترم الحقوق الانسانية وأن أي عامل فيه يمكنه أن يصبح مضارباً وأن أي بائع في الشارع له قيمة تعدل قيمة صاحب المصنع الكبير وأن التعليم حق للجميع، ذلك في الوقت الذي لاتصل فيه سوى قلة قليلة من أبناء البرازيليين الى مستوى الجامعة . ومن بين أساليب التضليل أيضاً ايهام المقهورين بأن جميع الرجال متساوون دون التفات لما يواجهه هؤلاء من أسئلة مثل هل تعرف مع من تتحدث ؟

ومن الخرافات أيضاً اضفاء صفة البطولة على الآخرين ، واظهارهم وكأنهم المدافعون عن الحضارة المسيحية الغربية ضد المادية البربرية ، ومنها أيضاً أسطورة كرم الصفوة المتحكمة وخرافة أن التمرد هو عصيان لأوامر الله وأن الملكية الخاصة ضرورة للتقدم الانساني وأن القاهرين طبقة عاملة بالضرورة وأن المقهورين كسالى وغير أمناء بالضرورة أيضا ، ذلك بالاضافة الى علو طبقة القاهرين وسفار طبقة المقهورين بالضرورة .

كل تلك الخرافات وغيرها هي التي ركز القاهرون على أن يستبطنها المقهورون من أجل أن يحافظ القاهرون على وضعهم في قلوب اولئك المستغلين وقد ركزوا على أن تتم عملية الاستبطان هذه بواسطة الدعاية والشعارات المنظمة التي تستخدم فيها وسائل الاتصال العام الحديثة .

وعلى وجه الاجمال فيمكننا أن نقول : ان القهر لا يمكن له أن يتحقق الا اذا دعم في نفس الوقت باللاحوار، ويمكننا أن نقول ان اللاحوار وسيلته الأبدية هي تحقيق الغزو المستمر لعقول وقلوب المقهورين .

لقد تحدثت الصفوة المسيطرة في روما القديمة عن اعطاء الخبز واقامة حلقات السيرك للجماهير لأجل تحقيق السيطرة عليهم، وتركز الطبقة المتسلطة في عصرنا على أن تحقق غزو الآخرين سواء كان ذلك بالخبز أو بغيره . حقاً فان محتوى الغزو وطرائقه تختلف من عصر الى عصر ولكن الذي لا يختلف ما ظلت الطبقة المتسلطة قادرة هو الرغبة المستميتة في القهر .

فرق تسد :

يعتبر هذا المبدأ من المبادىء المهمه في العمل القهري ويرجع تاريخه الى بداية القهر ذاته ويتلخص في أنه ما دامت الأقلية في مجتمع القهر هي التي تخضع الأغلبية لسيطرتها فان سبيلها للبقاء في الحكم رهن بقدرتها على تفريق كلمة المقهورين . ولما كان هذا هو حال الأقلية التي لا تستطيع أن ترى الأغلبية مجتمعة على كلمة سواء لأن في ذلك تهديداً لمكانتها فانها تعمل بكل الوسائل مهما بلغت درجتها في الضعف والبدائية لتحول دون احساس الأغلبية بحاجتها الى الوحدة ، ولذلك فأنت تجدها تدرج مفاهيم الوحدة والتنظيم والنضال تحت قائمة الأعمال الخطرة وهي بالفعل خطرة بالنسبة لمجتمع القاهرين ، لأن مجرد ادراكها يحرك في المقهورين رغبة جامحة في الحرية .

ان ما يرغب فيه القاهرون بالفعل هو اضعاف المقهورين وعزلهم وتعطيل قدراتهم في الابداع وتعميق الهوة التي تفصل بين تفكيرهم المشترك . ويتخذ

القاهرون لانجاز هذه الأهداف وسائل شتى تتراوح بين مستوى القهر البيروقراطي والتضليل الثقافي الذي يوحي للناس أن القاهرين يقومون بمساعدتهم ، ولعل من أخطر وسائل القهر الثقافي هو ما يقوم به بعض المتخصصين الذين يركزون فكرهم في قضايا جانبية وجزئية يحجبون بها الناس عن رؤية الواقع في صورته الشاملة ، ومن أبرز مظاهر التغريب والعزل الثقافي ذلك الذي يمارس تحت شعار تنمية المجتمع حيث تقسم المنطقة الى مجتمعات محلية دون دراسة عميقة لطبيعة هذه المجتمعات ككل متكامل في اطار واقعها الخاص من جهة وكجزء من المجتمع الكبير من جهة أخرى . إن هذه الممارسة هي ضرب من التجزئة التي تبقى على الناس متفرقين حتى لا يدركوا مشاكلهم الكبرى ويمكننا أن نقول ان التركيز على قضايا محددة في شريحة من شرائح المجتمع ثم تجسيم هذه الشريحة عمل يستهدف اعاقة المقهورين وعزلهم عن رؤية المشاكل التي يواجهها بقية أفراد المجتمع . وقد يستخدم أسلوب آخر في عزل الناس واعاقتهم عن رؤية مشاكلهم وهو ما يسمى ببرامج تدريب القادة التي لا تستهدف سوى عزل الناس وصرفهم عن واقعهم وتقوم هذه البرامج على تصور ساذج فحواه أن تدريب القادة يؤدي الى تطوير المجتمع وكأن الجزء هو الذي يطور الكل وليس الكل هو الذي يتطور وتتطور الأجزاء من خلاله ، ولا شك أن أولئك الاشخاص الذين تثبت عندهم قدرات على تحمل مسئوليات القيادة ويختارون الى هذه المهمة انما هم في حقيقتهم يمثلون طموحات المجتمع بأسره ، فهؤلاء الرجال على نسق تام مع الطريقة التي يعيش أو يفكر بها أصحابهم في الحياة الواقعة ، برغم أنهم قد أظهروا قدرات خاصة ميزتهم عن بقية أفراد المجموع ولكن بمجرد أن ينهى هؤلاء تدريبهم ويعودوا الى مجتمعهم من جديد بامكانات لم يكونوا يمتلكونها من قبل يتشكل سلوكهم في أحد سبيلين فاما أنهم يستخدمون امكاناتهم المكتسبة لتأكيد القهر المسلط على زملائهم واما أنهم يعيشون كالغرباء في مجتمعاتهم وتتهدد بذلك مكانتهم القيادية السابقة ، وبرغم قسوة الاختيار فانهم يختارون بالطبع ممارسة استغلال المجتمع ربما بطريقة أقدر من أجل المحافظة على وضعهم القيادي،ولكن عندما يكون العمل الثقافي متجهاً نحو المجتمع بأسره وغير مقتصر على القادة فحسب فان العكس تماماً يحدث لأنه في مثل هذه الحال اما أن تنسجم القيادة مع الشعب واما أن تستبدل القيادة بأسرها من أجل ايجاد قيادة جديدة تعبر عن ضمير الناس . وليس

غريباً أن يعارض القاهرون تثقيف المجتمع بأسره ويؤيدوا تثقيف حفنة من القادة ، ذلك أن تثقيف القادة على طريقة القاهرين يساعد على تعطيل قدرات الناس في الاحساس بواقعهم وبالتالي تتحقق تجزئة المقهورين وتفرقتهم .

ولعل من أكثر الأمور ازعاجاً للقاهرين هي الصراعات الطبقية فالقاهرون لا يرغبون في تمييز أنفسهم كطبقة قاهرة ، ولذلك فأنت تجدهم يطالبون دائماً بايجاد نوع من التفاهم والانسجام بين أصحاب العمل والعمال دون ادراك لأن التناقض بين هاتين الفئتين يجعل الانسجام بينهما مستحيلاً ، وبرغم ذلك فلطالما دعت الصفوة المسيطرة الى الانسجام بين الطبقات وكأنما الطبقة لا تعني أكثر من مجموعة من الأفراد ينظرون بغرابة الى نافذة دكان في ظهر يوم من أيام الأحد ، ويغيب عن هذه الصفوة أن الانسجام الوحيد المتاح لها هو الانسجام الذي يتم بين أفراد الطبقة ذاتها . حقاً انهم قد يختلفون وقد يتشاحنون عندما تتعارض مصالحهم ولكنهم سرعان ما يتحدون عندما تتعارض مصالحهم أو عندما يواجه طبقتهم اي تهديد خارجي، أما المقهورون فانهم لن يستطيعوا ممارسة الانسجام الا حين تنشغل طبقتهم في ممارسة النضال من أجل التحرير ولا ينفي ذلك أنه في بعض الحالات قد يضطر القاهرون والمقهورون الى الاتحاد والظهور بمظهر الانسجام وبمجرد أن تزول الأسباب العارضة يعودون الى تناقضهم القديم الذي لم يكن قد انتهى في المرحلة السابقة وانما قد اختبأ الى حين .

ويبدو من ذلك أن كل تصرفات الطبقة المتسلطة تتركز في احداث التفرقة بين المقهورين للحفاظ على وضعيتها، وتتجلى مثل هذه التصرفات في تدخلها في العمل النقابي مؤيدة بعض المرشحين الذين يمثلون مصالحها ومحتضنة بعض الأشخاص من ذوي النزعات القيادية من أجل تدجينهم، كما تتدخل من أجل توزيع المصالح لبعض المنتفعين والحاق الجزاء ببعضهم الآخر . كل هذه وتلك من أساليب التفرقة التي تمارسها الصفوة تبغي بها الحفاظ على وضعيتها ، وهي أساليب تعتمد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على استغلال بعض جوانب الضعف في الطبقات المقهورة ، ويتجلى من ذلك أن المقهور الذي يستبطن القاهر في داخله يعيش في غير مأمن من عسفه ويحقق بهذه الازدواجية مصالح القاهرين التي تبعد عن مصالح طبقته .

ولا شك أن المقهورين يعرفون بالخبرة نتيجة عدم استجابتهم لدعوة تحول بينهم وبين توحدهم كطبقة فالنتيجة في جميع الأحوال هي الفصل أو وضعهم في القوائم السوداء أو قفل أبواب الرزق في وجوههم . وهذا تأكيد على أن السبب الرئيسي في عدم احساسهم بالأمن هو عبوديتهم للعمل الذي يقومون به ومن هنا يبدو أن الانسان لا يستطيع أن يحقق رجولته الا إذا تمكن من ابداع عالمه الخاص واستطاع في نفس الوقت أن يبدع العمل الذي يمكنه من تغيير صورة العالم . واذا كان بقاء الرجال في محيط العمل يعني فقط أن يعيشوا في غير مأمن ومهددين فان ذلك نذير بعدم تمكنهم من تحقيق رجولتهم لأن العمل الذي لا يكون حراً انما هو ظاهرة من ظواهر القهر يمارس ضد انسانية الانسان وفي ضوء ذلك ندرك أن وحدة المقهورين هي في الواقع خطوة نحو ادراكهم لحقيقة أن تفردهم يساعد على وقوعهم فريسة للاستغلال والسيطرة والممارسات اللاانسانية وعلى نقيض ذلك فإن الوحدة والتنظيم يساعد هؤلاء على تجاوز ضعفهم وانماء قوة التعبير التي يستطيعون بها اعادة ابداع العالم بجعله صالحاً لبيئة الانسان . وهذا العالم الجديد هو نقيض عالم القهر الذي لا يمتلكه الا القاهرون وحدهم . ويتضح من كل ذلك أن سياسة « فرق تسد » هي في الواقع هدف رئيسي لنظرية العمل غير الحواري حيث يحاول بها المسيطرون أن يظهروا أنفسهم وكأنهم مخلصون للرجال الذين يعانون من قهرهم ، ولكن هذه المسيحية الكاذبة لا تستطيع أن تحجب نواياهم الحقيقية فهم لا يريدون سوى الحفاظ على ثرائهم وقوتهم وأساليب حياتهم وتلك كلها من الوسائل التي تعينهم في السيطرة على الآخرين غير أن خطأهم يتركز في أنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن الخلاص لا يتحقق لهم الا في العمل مع الرجال ، وما داموا يقهرون فانهم لا يستطيعون أن يكونوا مع غيرهم من الرجال،ذلك أن القهر هو حائل أعظم بين الطرفين .

ولقد يكشف التحليل السايكلوجي أن الكرم الزائف للقاهرين إنما هو تعبير عن الاحساس بالذنب ، فبهذا الكرم الزائف لا يحاول القاهر فقط الحفاظ على نظام غير عادل ومميت ، وانما يحاول ايجاد السلام لنفسه ولكن السلام لا يشترى بهذا الاسلوب ، لأن السلام انما يستشعر عن طريق التماسك والحب ، الذي لا يمكن أن يكرس فى ظروف القهر ، وبذلك فإن المسيحية الكاذبة في نظرية العمل اللاحواري

هي في حقيقتها تأكيد لأهم مقومات هذا العمل أي الحاجة الى الغزو . وما دامت هنالك فئة ترى ضرورة تقسيم الناس من أجل الحفاظ على وضعها كطبقة قاهرة فان هذه الفئة تجهد في ألا يرى المقهورون استراتيجية قهرهم لذلك تجدهم يحاولون اقناعهم بأنهم حماتهم ضد الأعمال الشيطانية وضد المتطرفين والمشاغبين واعداء الله ، وهكذا لأجل أن يقسم القاهرون الناس ويربكوهم فانهم يسمون أنفسهم بناة فيما يعتبرون البناة الحقيقيين هدامين وأعداء،ولكن التاريخ يأخذ على عاتقه تصحيح هذه الأوضاع الخاطئة ، فعلى الرغم من أن الوثائق الرسمية تسمى تايرادنتيس - زعيم ثورة مجهضة لاستقلال البرازيل من البرتغال عام ١٧٩٨ - وما فعله مؤامرة فان البطل في نظر الجماهير ليس هو ذاك الذي سماه لصاً وحكم عليه بالموت والتقطيع ونثر أجزاءه في القرى المجاورة ليعتبر بها الناس بل البطل في نظر هؤلاء هو تايرا دينتيس . لقد مزق التاريخ كل الصفات التي الصقتها به الصفوة المتسلطة وأقام مكانها اعترافاً بأعماله البطولية لأن الأبطال في تلك المرحلة كانوا هم الرجال الذين اتحدوا من أجل تحقيق حريتهم وليس الذين قسموهم من أجل أن يحكموا

الاستغلال :

يشكل الاستغلال بعداً آخر في العمل غير الحواري وهو كنظيره « فرق تسد » وسيلة من وسائل الغزو ، ولا يخفى أن الغزو هو المحور الذي تدور عليه كل أبعاد النظرية ، فبوسيلة الاستغلال تحاول الطبقة المتسلطة أن تجعل كتلة الناس تتوافق مع أهدافها وبقدر ما تكون الجماهير غير ناضجة في خبرتها السياسية بقدر ما تسهل عملية استغلالها بواسطة أولئك الذين لا يريدون فقدان سلطتهم.ولقد أوضحنا خلال هذا الفصل كثيرا من الاساطير والخرافات التي يستغل القاهرون بها الناس ، ولكن تبقى هنالك أسطورة يستهدف بها القاهرون ابعاد الناس عن تحقيق طموحاتهم وهي اسطورة البرجوازي ، اذ لا يمكن للخرافات والأساطير السابقة أن تحقق أهدافها ما لم يقبل الناس أسطورة البورجوازي ، ففي بعض الحالات تتم عملية الاستغلال بواسطة حلف بين القاهرين والمقهورين.والذين لا يتبينون حقيقة هذا الحلف قد يظنونه علاقة حوارية بين الطرفين ، وهو في حقيقته غير ذلك لأنه

محكوم بأهداف القاهرين وأغراضهم ، فالتأييد الذي يمنحه الناس لما يسمى بالبرجوازية الوطنية في مواجهة ما يسمى بالرأسمالية الوطنية هو نموذج لما أردنا بيانه ، ولكن مثل هذا التأييد لن يقف حائلاً دون اكتشاف الناس عاجلاً أو آجلاً للحقيقة المتمثلة في خضوعهم للقهر . ومن الغريب أن مثل هذه التحالفات لا تعرض للناس إلا عندما يبدأون تحركهم من أجل تهديد سلطة القاهرين ولعب دورهم المحتم في التاريخ ، ففي مثل هذه الظروف يضاعف القاهرون تكتيكاتهم من أجل مزيد من الاستغلال ويصبح الاستغلال في هذه المرحلة وسيلة فعالة في الحفاظ على مصالح الصفوة المسيطرة ، والملاحظ هو أن القاهرين لا يلجأون الى أسلوب الاستقلال قبل أن يبدأ الناس تحركهم ضد مجتمع القهر فهم يلجأون في الظروف العادية الى أسلوب القمع اذ لا داعي للجوء للاستغلال ما دام الناس غير مدركين لحقائق العالم حولهم ، فالاستغلال في نظرية العمل غير الحواري هو مواجهة حتمية تفرضها استجابة المقهورين لنداءات العملية التاريخية الجديدة ويستهدف القاهرون من خلال عملية الاستغلال هذه توجيه الناس الى أنواع مزورة من التنظيم تجنبهم التهديدات المحتملة في حال دخولهم في تنظيم حقيقي ذلك أن التنظيم الحقيقي يقود المقهورين الى تحقيق حريتهم فأما الاخفاق فيقودهم الى عكس ذلك تماماً . وما دام الأمر كذلك فان المتسلطين لا يمكن لهم أن يساعدوهم على انجاز تنظيمهم الحقيقي لأن التنظيم الحقيقي هو من مهمة القادة الثوريين وليس من مهمة المتسلطين ، وقد يحدث في قطاعات كثيرة أن يشكل المقهورون في التجمعات الصناعية « بوليتاريا مدنية » ولكن هذه التجمعات الاتكالية كثيراً ما تفقد روح الثورة حين تعتبر نفسها محظوظة بعض الشيء ولذلك فهي على الدوام بيئة صالحة للاستغلال عن طريق الخداع والدعوة الكاذبة .

أما تلك البيئة التي لا ينجح فيها الاستغلال فهي التنظيم الثوري الناقد الواعي بالمشكلات والذي ما يفتأ يطرحها على الناس كقضايا تحدد لهم موقعهم من العملية التاريخية وتبصرهم بالحقيقة الوطنية وحقيقة الاستغلال ذاته .

يقول « فرانسيسكو ويفرت »

« إن كل سياسات اليسار معتمدة على الجماهير وعلى وعيها بها فاذا ما اختل هذا الوعي فسيفقد اليسار جذوره وسينهار على الرغم من أن اليسار كما هو الشأن في البرازيل يظل يوهم نفسه بأنه يستطيع تحقيق الثورة عن طريق العودة السريعة الى الحكم . » .

وهكذا ففي ظروف الاستغلال يظل اليسار مغرماً بالعودة السريعة الى السلطة وبذلك يتناسى ضرورة الاتحاد مع المقهورين وينصرف الى تكوين تنظيم يقيم به حواراً مستحيلاً مع المتسلطين ينتهي به الى أن يصبح هو نفسه مستغلاً بواسطة الصفوة ولعله يشترك معهم في لعبة القهر وقد يبرر هذه المشاركة بأنها ضرب من الواقعية .

وكما الغزو فإن الاستغلال أيضا هو محاولة لتحييد الناس وصرفهم عن التفكير في الواقع ذلك أن التفكير في الواقع يؤدي بهم الى القيام بالعمل الحقيقي وسواء سمي هذا التفكير الصحي وعياً ثورياً أو طبقياً فهو ضروري في مرحلة ما قبل الثورة ، ولما كانت الطبقة المسيطرة تدرك ذلك تماماً فإنها تعمد الى استخدام جميع الوسائل بما فيها العنف لمنع الناس من التفكير في هذا الاتجاه وتدرك هذه الطبقة أن الحوار يؤدي بالضرورة الى تطوير نزعة النقد . وكما يعتبر بعض القادة الثوريين أن الحوار مع الناس نزعة بورجوازية رجعية فإن البرجوازيين يعتبرون الحوار بين المقهورين وقادة الثورة مظهراً خطراً لا بد من تجنبه ، وأيضاً فمن أساليب الاستغلال والسيطرة محاولة جر الافراد الى نزعة تحقيق النجاح الفردي وهي نزعة سائدة عند البورجوازيين وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة فان المتسلطين يتخذون القادة الجماهيريين هدفاً لذلك، وكما يقول « ويفرت » فإن هؤلاء القادة عندما يخضعون لهذا النوع من التسلط يعملون كوسطاء بين الطبقة المتسلطة والجماهير . ولما كان ظهور هؤلاء القادة في الاساس مرتبطاً بظهور طبقة المقهورين فإن وضعهم الجديد يجعلهم يمارسون نوعاً من الازدواج تتميز فيه نفوسهم بخصائص المقهورين والقاهرين في آن معاً . وما ظل القائد الجماهيري يمارس الاستغلال بدلاً من الانصراف الى التنظيمات الشعبية الفعالة فإنه لا يخدم الثورة بحال من الأحوال،ذلك أن سبيله الوحيد لخدمة الثورة هو الاقلاع عن ممارسة الازدواج وتوطين نفسه لقضية المقهورين وبذلك يتوقف عن أن

يكون مجرد واجهة شعبية لأنه ان فعل ذلك نبذ الاستغلال وتم انحيازه لتنظيم الثورة الحقيقي وهو بهذا العمل يتوقف عن أن يكون مجرد وسيط بين الجماهير والمتسلطين، وبدلاً من ذلك فسيصبح مواجهاً لطبقة المستغلين بما يحتم على القاهرين أن يتخذوا الاجراءات لاسقاطه ولنتأمل ما قاله « جيتوليو فارغاس » في هذا السياق وذلك في عيد العمال في آخر فترة رئاسته « أريد أن أخبركم بأن العمل التجديدي الضخم الذي تتطلع به ادارتي لا يمكن أن ينجز بدون وقوفكم الصلب وتعاونكم اليومي معي » . . . ولقد تحدث فارغاس أيضاً بمناسبة قضائه تسعين يوماً في السلطة عما أسماه تقويماً للعقبات والمصاعب التي واجهت حكومته .

لقد تحدث مباشرة الى الناس عما يحس به من أسف تجاه العجز والفقر وارتفاع مستوى المعيشة مع انخفاض المرتبات وتحدث عن تطلع الأغلبية لمستقبل أفضل مع فقدان الأمل . ولقد كان حديثه في كل ذلك متسماً بالموضوعية . قال :

« لقد جئت اليكم لأخبركم أن الادارة لا تملك في هذه اللحظة القوانين التي تحمي بها مصالحكم الاقتصادية لذلك فمن واجبكم أن تنظموا أنفسكم ليس من أجل الدفاع عن أهدافكم فحسب بل لتمنحوا الحكومة السند الذي يمكنها من تحقيق اهدافكم . انني محتاج الى وحدتكم وتماسككم لذلك فإني أدعوكم لتنظيم أنفسكم في نقاباتكم لتكونوا جبهة قوية متحدة تقف الى جانب الحكومة وتدعمها حتى تتمكن من حل جميع مشاكلكم . أريد وحدتكم لأجل أن تناضلوا ضد ساحقيكم كيلا تقعوا فريسة للمضاربين . لقد حانت الساعة التي تتحدون فيها في نقاباتكم من أجل تحقيق حريتكم وقوتكم المنظمة فليست هنالك الآن ادارة تستطيع أن تحقق اهدافها الاجتماعية دون مساندة تنظيمات القوى العاملة » وعلى وجه العموم فقد لجأ فارغاس في خطبته الى دعوة الجماهير كي توحد قوتها وتنظيمها دفاعاً عن حقوقها فلقد أخبرهم بوصفه رئيساً للدولة عن العقبات والمصاعب التي تواجه الحكم معهم، ومنذ تلك اللحظة فقد بدأت ادارته تواجه مزيداً من المصاعب حتى جاءت القمة المأساوية عام ١٩٥٤ ، ولعله لو لم يكن فارغاس قد وجد الشجاعة في نفسه لدعوة الناس كي يتوحدوا من أجل حماية مصالحهم وبنى على ذلك سلسلة من الاجراءات الوطنية لما تحركت الصفوة الرجعية بأقسى أساليبها ضد نظامه .

ومن ذلك يتضح أن أي قائد يرفض أن يكون وسيطاً بين الناس والصفوة ويتخذ خطواته نحو الناس ، فإن الصفوة تعمل بكل قواها لاحتوائه أو تدميره ان ملكت القوة الى ذلك،اما اذا اكتفى بالدور الأبوي وتقديم مشروعات الرفاهية الاجتماعية حتى وان كانت بينه وبين الصفوة خلافات وقتية فإنه لن يواجه بمعارضة عميقة الا في النادر ذلك أن مشروعات الرفاهية الاجتماعية تستخدم في بعض الأحيان لاحكام الاستغلال من أجل غاية الغزو وذلك لما تتميز به هذه المشروعات من تأثيرات انصرافية تحرف الناس عن التفكير في أسباب مشكلاتهم الحقيقية ومحاولة ايجاد الحلول لها . فهذه المشروعات تقسم الناس الى مجموعة أفراد كل منهم يحاول أن يحقق بعض المصالح لنفسه ولكن هذا الوضع له انعكاسات سلبية أيضاً لأن الفرد الذي يحصل على القليل يطمع في الكثير والذي لا يحصل تمتلىء نفسه بالمرارة والحقد ويطالب بحصته في المساعدة ، وما دامت الصفوة المسيطرة لا تستطيع أن تقدم له شيئاً فانها تجنح الى مزيد من الاجراءات الكابحة ، وهنا يجب أن يستفيد قادة الثورة من تناقضات الاستغلال بعرضها كمشكلات أمام جماعة المقهورين والاستفادة منها في تنظيمهم من أجل تحرير أنفسهم .

الغزو الثقافي :

تتميز نظرية العمل اللاحواري بخصيصة أخيرة ومهمة تلك هي خصيصة الغزو الثقافي وهذه الخصيصة كرصيفاتها تعتمد على تكتيكات التفرقة والاستغلال حتى يتسنى لها أن تخدم الغاية النهائية للسيطرة وهي الغزو وفي هذه الظاهرة يخترق الغزاة الواقع الثقافي لجماعة من الناس متجاهلين امكانات هذا الواقع ومحاولين فرض تصورهم الخاص للعالم على أولئك المخضعين من أجل تعطيل قدراتهم على الابداع والتعبير . وبصرف النظر عما اذا كان الغزو الثقافي متحضراً أو همجياً فانه مظهر من مظاهر العنف موجه ضد فئة من الناس من أجل اضاعة أصالتها وتهديدها بالزوال وكأي عمل لا حواري فان الغزاة يمارسون دور المؤلفين والممثلين في هذه العملية وأما الذين يتم اخضاعهم فيشكلون المسرح الذي ينجزون فيه مثل هذا العمل .

وفي هذه التمثيلية يقوم الغزاة بدور الاختيار في حين يقوم المغزوون بقبول هذا الاختيار أو على الأقل يتوقع منهم أن يفعلوا ذلك ، واذا كان الغزاة هم الممثلين

فان المغزيين يتحتم عليهم أن يتوهموا أنهم يقومون بدور مشابه من خلال تمثلهم لأدوار الغزاة وهكذا فإن جميع الوان السيطرة تتضمن شيئاً من الغزو. وقد يكون هذا الغزو ظاهراً أو قد يتنكر في بعض الأحيان في ثوب التمويه، وذلك بالطبع حين يتظاهر الغزاة بأنهم أصدقاء. وعلى وجه الاجمال فان الغزو ضرب من السيطرة الاقتصادية والثقافية وقد تمارسه دول متمدينه على مجتمع ضعيف وقد تمارسه طبقة ما على طبقة أخرى في اطار المجتمع الواحد . وفي جميع الحالات فإنه يؤدي الى طمس حقيقة أولئك الذين يخضعون له وذلك من خلال استجابتهم لقيم ومقاييس وأهداف الغزاة ، فالغزاة من أجل تنفيذ رغباتهم في السيطرة وتغيير حقيقة الآخرين كي تتوافق مع واقعهم يحسون بدافع عميق لمعرفة الطريقة التي ينظر بها المغزوون للعالم وذلك من أجل احكام السيطرة عليهم ، ذلك أن نظرية الغزو الثقافي تقوم على أن ينظر المغزوون الى واقعهم من خلال نظرة الغزاة لهم وبقدر ما يقلدون هؤلاء الغزاة بقدر ما يتأمن وضع الغزاة ولأجل أن يتحقق هدف الغزو فلا بد أن يقتنع المغزوون أولاً بدونيتهم لأن في اقتناعهم بالدونية اعترافاً بعلوية الغزاة ، وفي هذا الاعتراف يكمن التحول الذي يؤدي بالمغزوين الى تمثل خطى الغزاة في طرائق مشيهم ولبسهم وسلوكهم الاجتماعي وبذلك يتحقق الازدواج في شخصياتهم . وهذا الازدواج هو الذي يوضح لماذا يتعايش المقهورون في بعض المراحل مع قاهريهم . ولا يمكن لهذا الازدواج أن ينتهي الا اذا نزع المقهور نفسه بعيداً عن قاهره حتى يتمكن من تمييزه على البعد وبذلك يدرك التناقض القائم بين شخصيته وشخصية القاهر ، ففي هذا العمل يدرك أي ظروف لا انسانية يعيش فيها. وبهذا التغيير النوعي ـ وحده ـ في النظرة يتأتى تغيير العالم عن طريق النضال .

ويتبين من ذلك أن الغزو هو أداة للسيطرة من جهة ونتيجة لها من جهة أخرى وكغيره من أنواع العمل اللاحواري فهو في الحقيقة نتاج طبيعي لمجتمع القهر ، ذلك أن التركيبة الاجتماعية الصارمة والتي تقوم على مبادىء القهر تؤثر بلا شك على المؤسسات بتربية الاطفال وتعليمهم ، فهذه المؤسسات تتشكل بحسب طبيعة النظام الذي تنتمي اليه وتتخذ من نفسه وسائل لنقل خرافاته وتمويهاته وأساطير ولعله من المعروف أن البيوت والمدارس لا توجد في فراغ وانما توجد في مجتمع ما ،

ظل السيطرة تصبح المدارس من مستوى الحضانة الى مستوى الجامعة فراخات لغزاة المستقبل ، ومن المحتم أن تنعكس على علاقة الابن وأبيه كل الظروف الثقافية التي تسيطر على المجتمع الخارجي ، فاذا كانت المبادىء التي تخترق جدار المنزل صارمة ومتحجرة ومبنية على فلسفة القهر فإن المنزل سيغذي الاحساس بالقهر ذلك أن أي تعميق للعلاقة الصارمة بين الاب وابنه تجعل الأطفال يستبطنون السلطة الأبوية . وكعادته في الوضوح يحلل « فروم » الظروف التي تؤدي الى القتل المعنوي ونقيضه سواء كان ذلك في علاقة الأب مع ابنه أو في العلاقات الاجتماعية .

يقول : « انه اذا ما نشيء الأطفال في ظروف يفتقدون فيها الحب ويمارسون بدلاً عن ذلك ظروف القهر فإن هؤلاء الأطفال في فترة الشباب لا يجنحون الى الانقلاب الصادق على واقعهم بل ينحرفون إما الى سلبية كاملة واما الى بعد أكيد عن الواقع تحركهم الخرافات والاساطير التي شكلوا فيها من أجل تغريبهم.واذا لم يتجهوا الى إحدى هاتين الطريقين فانهم قد يجنحون الى العمل الاجرامي أو الهدام » .

وما يحدث في المنزل يتكرر في المدرسة أيضاً حيث يكشف الطلاب أنهم كي يحققوا بعض التوافق مع النظم المدرسية فلا بد لهم أن يمتثلوا لما يملى عليهم من فوق ، وما يملى عليهم هو الاقلاع عن التفكير .

وهكذا فبسبب استبطان السلطة الأبوية القائمة على صرامة العلاقة والتي تغذيها المدرسة فإن هؤلاء الاطفال حين يشبون ويصبحون رجالاً متخصصين يبدأون في اعادة نفس الاساليب التي أسيء تعليمهم بها.ولا سبب لذلك سوى الخوف من الحرية الذي تم غرسه في نفوسهم .

وتفسر لنا هذه الظاهرة بمساندة الوضع الطبقي لماذا ينفر كثير من المتخصصين عن استخدام أسلوب الحوار ، وبصرف النظر عن نوعية التخصصات التي تقرب هؤلاء من الجمهور فأنت تجدهم يولدون في نفوسهم قناعة تامة بأحقيتهم في تعليم الجمهور أساليب معرفتهم وتكتيكاتهم في العمل،وأول ما يتجهون اليه هو فرض برامجهم التي تعبر عن أهدافهم الشبيهة بأهداف القاهرين . انهم لا يستمعون الى

الناس ولكنهم يجهدون أنفسهم كي يعلموهم كيف يطردون الكسل عن أنفسهم الذي هو سبب تخلفهم .

ويبدو في نظر هؤلاء المتخصصين أنه من العبث احترام وجهة نظر الآخرين عن العالم بل يعتبرون من العبث استشارة الآخرين في الأمور التي تخصهم ، فعندما يضعون محتوى البرنامج التعليمي يصيبهم احساس بأن الناس في غفلة تامة ولا يصلحون لشيء سوى تلقي تعاليمهم،فبدل أن يعترف المتخصصون بفشلهم فإنهم يعتبرون الناس أخساء ناكرين للجميل غير قابلين للتطور ومرضى أو أنهم من دماء مختلطة.أما أولئك المتخصصون الذين تحسن نيتهم والذين لا يستخدمون الغزو كأيديولوجية مقصودة بل يمارسونه كتعبير عن تكوينهم الثقافي فسرعان ما يكتشفون أن فشلهم لا يعزى الى وضاعة الناس بل الى قسوتهم في استخدام أساليب الغزو. والذين يكتشفون هذه الحقيقة يبدأون في مواجهة خيارات صعبة ، فهم يرغبون في التشهير بالغزو ولكن مثل هذا التشهير سوف يعود عليهم بالثبور تحت سلطة القهر . حقاً ان رفض الغزو يعني انهاء ازدواجيتهم الثقافية كمستغلين ومستغلين وذلك يتطلب منهم أن يرفضوا جميع الخرافات والاساطير التي تكرس الغزو وليدخلوا مرحلة العمل الحواري وهي المرحلة التي لا يكونون فيها « فوق » أو في « الداخل » كأغراب بل يكونون « مع » كرفقاء،وهنا يتلاشى خوف الحرية عند هؤلاء الرجال وقد يضطرون خلال هذه العملية الى عقلنة خوفهم بسلسلة من التبريرات . وفي نفس الوقت يظل الخوف عظيماً عند أولئك المتخصصين الذين لم يكتشفوا بعد طبيعة عملهم الغازي ولكنهم قد أخبروا المتخصصين الذين لم يكتشفوا بعد طبيعة عملهم الغازي ولكنهم قد أخبروا بالطبيعة اللاانسانية لعملهم . ففي مرحلة تحليل المواقف قد يسأل بعض المشاركين في برنامجنا التدريبي المنسق الى أين تتجه بنا ؟

والحقيقة هي أن المنسق لا يتجه بنا إلى أي مكان ولكن هذا السؤال يعني أن المشاركين قد بدأوا يدركون أنهم يواجهون موقفاً حقيقياً كمشكلة وهنا يدرك المشاركون أنه اذا تعمق تحليلهم فاما أن يفروا بأنفسهم من خرافاتهم أو يؤكدوها . أما طرح الخرافات فانه يعني عندهم في تلك المرحلة عملاً من اعمال العنف وبالتالي فإن تأكيد تلك الأساطير يؤدي الى تأكيد انفسهم وكما أوضحت في كتابي مقدمة في

العمل الثقافي فإن المخرج الوحيد في مثل هذه الحال هو أن يجسموا للمنسق تجاربهم الخاصة في الانقياد والغزو وقد يحدث مثل هذا التراجع في مجال ضيق بين الرجال الذين طحنهم القهر والذين دجنوا بواسطة الكرم الزائف .

يذكر أحد المدرسين الذين قاموا بعمل قيم في برنامج تعليمي بنيويورك تحت اشراف « روبرت فوكس » أن جماعة « غيتو » في نيويورك ووجهوا بموقف يحتاج الى تحليل ويتمثل في كوم كبير من الأوساخ في أحد الأركان من نفس الشارع الذي تجتمع فيه الجماعة ، فقال أحد المشاركين اني أرى شارعاً في أفريقيا أو أميركا اللاتينية . فقال المدرس ولماذا لا يكون هذا الشارع في نيويورك ؟ فقال المشارك لأننا في الولايات المتحدة حيث لا يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء .

لا شك أن هذا الرجل وجماعة من رفقائه من الذين شاركوه الرأي قد بدأوا يتراجعون من حقيقة تسيء اليهم الى درجة أن مجرد الاعتراف بها قد يهددهم ذلك أن الرجل المغرَّب بواسطة الانجازات الثقافية والنجاح الفردي عندما يعترف بالحقيقة السيئة لوضعه فإن ذلك يعوق امكان تقدمه ، ففي الحالة المذكورة وفي مثال المتخصصين فإن ثقافة الرجل المسيطر تحول دون قدرات الرجال على اتخاذ القرار فلا المتخصصون ولا الجماعة المشاركون في أقذار نيويورك استطاعوا أن يعبروا عن أنفسهم كأفراد يشاركون في العملية التاريخية ، ذلك أنهم لا يستطيعون تنظير ايدلوجية القهر ، وعلى الرغم من أنهم أثر من آثار القهر فإنهم قد بدأوا يتحولون ليصبحوا من أسبابه،وهذه من أصعب الأمور التي تواجهها الثورة عندما تتسلم السلطة ، فهذه المرحلة تتطلب أقصى درجات الحكمة السياسية والشجاعة والقدرة على اتخاذ القرار من القادة الذين يجب الا يقعوا أسرى للمذهبية الضيقة بغير وعي .

وسواء كان المتخصصون في أي قطاع من القطاعات من خريجي الجامعة أم لا فإنهم في ظروف القهر تتحدد هويتهم من أعلى بواسطة ثقافة القهر التي تحولهم الى وجود مزدوج . ان هؤلاء المتخصصين ضروريون لاعادة تنظيم المجتمع الجديد . وبرغم أن الكثيرين منهم خائفون من الحرية وغير راغبين في المشاركة في عمل انساني ، فإن من واجب الثورة أن تستعيدهم الى صفوفها . وتستوجب عملية

الاستعادة هذه أن يتطور القادة مما أسميناه فيما قبل بالعمل الحواري حتى يكونوا أهلاً لبدء الثورة الثقافية . وفي هذه المرحلة فإن الثورة تتجاوز أهدافها كقوة مواجهة لأولئك الذين كرسوا أنفسهم لقهر الرجال لتصبح دعوة مفتوحة لكل أولئك الذين يرغبون في اعادة بناء المجتمع ، وبهذه الطريقة تصبح الثورة الثقافية استمراراً طبيعياً للعمل الثقافي الحواري الذي بدىء به قبل أن تصل الثورة الى السلطة .

إن الثورة الثقافية تستهدف إعادة بناء المجتمع متخذة في ذلك جميع الانشطة الانسانية مجالاً لاعادة البناء، ذلك أنّ المجتمع لا يمكن أن يعاد بناؤه بطريقة ميكانيكية ، فالثقافة التي أعيد تكوينها بالثورة هي الأداة المهمة في إعادة البناء وينسجم مع ذلك أن الثورة الثقافية هي أقصى درجات الوعي التي يحققها النظام الثوري ، ولذلك فلا بد أن تصل ثمرتها الى كل رجل بصرف النظر عن موقفه ، وبالتالي فلا يمكن أن يترك الأمر كله في يد قلة من التقنيين أو العلميين ، فالمجتمع الجديد يختلف نوعياً عن المجتمع القديم من حيث انه لا يوكل بالتقنية نفس المهام التي يوكلها بها المجتمع القديم ، وكذلك فإن تدريب الرجال في المجتمعين لا بد أن يختلف بحيث لا يتوغل التعليم التقني والعلمي على التعليم الانساني ، ذلك أن العلم والتقنية في المجتمع الثوري هي مجرد أدوات لتحقيق أهداف التحرير والأنسنة الدائمة .

ومن هذه الزاوية فإن تدريب الرجال لأية مهنة ـ طالما كان التدريب يتم في اطار زماني ومكاني ـ يستوجب أولاً أن يفهم هؤلاء أن الثقافة قادرة على احياء تراث الماضي في داخل التنظيمات الثورية كما يقول « التوسر » وهذه بالتالي قادرة على احداث التطوير الثقافي ولكن بمجرد أن تعمق الثقافة الثورية احساس الناس بالابداع الثوري في المجتمع الجديد يبدأون في ادراك الاسباب التي جعلت الاساطير القديمة تحيا في اطار المجتمع الجديد،ومن ثم يستطيع الرجال تحرير أنفسهم عن تلك الأساطير التي تشكل عقبة أمام جميع الثورات ، فهذه الأساطير هي في الواقع عملية غزو يقوم بها مجتمع القهر تجاه مجتمع الثورة الجديد . وهذا الغزو من أشرس الأنواع لأنه لا تقوم به طبقة متسلطة وانما يقوم به الرجال الذين شاركوا في الثورة

والذين ما يزالون يستبطنون القاهرين في داخل أنفسهم ، وبذلك يحولون دون تحقيق الاجراءات التي تتخذها السلطة الثورية ، فهم بطبيعتهم الازدواجية يقبلون السلطة البيروقراطية وما تسومه اياهم من عنف وقهر ويفسر « الثوسر » هذه الظاهرة بقوله: ان قبول هؤلاء لهذا الوضع هو في حقيقته احياء للعناصر القديمة المستبطنة في داخلهم متى كانت الظروف ملائمة لذلك في المجتمع الجديد .

ونظراً للأسباب السابقة فانني اعتبر العملية الثورية ضرباً من الحوار الثقافي طور الى ثورة ثقافية بمجرد الحصول على السلطة وفي كلتا المرحلتين لا بد من تهيئة الظروف للاحساس العميق بالواقع لأنه من الضروري أن يترك الرجال خلفهم واقعهم كأشياء ليستجيبوا لواقعهم الجديد ككائنات تاريخية . وأخيراً فان الثورة الثقافية لا بد لها أن تهيء الظروف لنوع من الحوار الدائم بين القادة والشعب وتؤمن للشعب مشاركته في السلطة ، فهذه الطريقة وحدها حيث الشعب والقادة يمارسون سلطتهم الناقدة فإن الثورة تصبح قادرة على حماية نفسها ضد الاتجاهات البيروقراطية التي تؤدي الى مزيد من القهر وضد الغزو الذي يؤدي الى نفس الغرض وسواء كان الغزاة في مجتمع بورجوازي أو في مجتمع ثوري فإنهم قد يأتون اما من طبقة الزراعيين أو الاجتماعيين أو الاقتصاديين أو مهندسي الصحة العامة أو من بين الكهنة والرعاة والمعلمين والعمال أو حتى من بين الثوريين أنفسهم .

ويتضح لنا مما سبق أن الغزو الثقافي لا يخدم سوى غايات القهر واحكام التسلط فهو يحمل في طياته مفهوماً غير منظور للواقع ويحاول دائماً فرض واقع ما على واقع آخر، وبذلك فإنه يتضمن علوية الغزاة ودونية الذين يخضعون للغزو ويحاول جاهداً اقحام قيم الغزاة في مجتمع المغزوين حتى يحكم أولئك سيطرتهم على المجتمع المقهور وأبعد من ذلك فإن الغزو الثقافي يجرد المقهورين من سلطة اتخاذ القرار ويضفيها على القاهرين بل ويعمل على ايهام المقهورين بأنهم يقررون لأنفسهم ، وهذا يفسر لنا لماذا لا يحدث تقدم اجتماعي اقتصادي في مثل هذا المجتمع المزدوج ذلك أن التقدم كي يحدث فلا بد أن تتوافر أولا لطالبيه حرية اتخاذ القرار والقدرة على ممارسة الابداع وثانياً ألا تقتصر هذه الممارسة على المكان فقط وانما تمتد الى الزمان أيضاً .

واذا كنا نقول ان كل تقدم هو بالضرورة تطوير فلا يمكننا أن نقول ان كل تطوير هو بالضرورة تقدم ، فالتطور الذي يحدث للحبة التي تصادف ظروفاً ملائمة للنمو لا يمكن أن نعتبره تقدماً وكذلك فان تطور الحيوان لا يمكن أن نعتبره تقدماً ذلك أن تطور الحبة والحيوان انما يحدث في الزمن الذي ليس هو ملكاً لأي منهما ، أما بالنسبة للرجال فالأمر يختلف لأنهم يمتلكون أزمانهم الخاصة وعلى ذلك فان الرجال هم وحدهم من بين الكائنات يمتلكون القدرة على التقدم لأنهم يستطيعون التقدم في أزمانهم الخاصة وذلك يوضح لنا أن الرجال الذين يخضعون لظروف القهر لا يمكن أن يتقدموا لأن وجودهم في حقيقته هو وجود مزيف تحت ظروف القهر . انهم يفتقرون الى حقهم في اتخاذ القرار وهي سلطة انتزعها منهم القاهرون وأبدلوهم مكانها الانصياع للوصفات التي يملونها عليهم ، وبذلك لم يعد في امكانهم التقدم الا اذا تجاوزوا هذا التناقض الذي وقعوا فيه ، وأصبحوا ملكاً لأنفسهم ، واذا اعتبرنا المجتمع كائناً حياً فإن الكائن لنفسه هو وحده الذي يستطيع أن يتطور أما المجتمعات التي تمارس الازدواجية والتبعية للمجتمعات المتقدمة ، فانها لا تستطيع شيئاً من ذلك لأنها مغزوة ولا تستطيع اتخاذ القرار في مسائلها السياسية والاقتصادية والثقافية وانما تترك أمر ذلك كله للمجتمعات الغازية ويتضح من ذلك أن مجتمعات الغزاة هي التي تتحكم في مصائر المجتمعات المغزوة وبذلك فان المجتمعات الأخيرة لا تستطيع أن تحرز نوعاً من التقدم وجل ما تحرزه نوع من التطوير الذي يخدم مجتمعات الغزاة

وهنا يجب علينا ألا نخلط بين التحديث والتقدم ، فالتحديث رغم أنه يؤثر على فئات محدودة في المجتمعات المغزوة فإن الذين يجنون ثمراته هي المجتمعات المتقدمة التي تقوم بدور الغزاة ذلك أن المجتمع الذي يركن الى التحديث وحده حتى وان أعطى قدراً من السلطة في اتخاذ القرار لا يمكنه إلا أن يعتمد على غيره من المجتمعات الخارجية وهذا هو مصير أي مجتمع يمارس التبعية .

ولكي نحدد ما اذا كان المجتمع متقدماً أم لا ، فإن علينا أن نتجاوز مقياس معدل الدخل الفردي لأنه مقياس احصائي مضلل وننظر بدلاً منه فيما اذا كان المجتمع يعيش لنفسه أم لا . فإذا كان المجتمع لا يعيش لنفسه فإن أي مقياس آخر

انما يعكس درجة التحديث وحدها،ولعل أبرز تناقض تمارسه المجتمعات ذات الطبيعة المزدوجة يتجلى في علاقتها مع المجتمعات المتقدمة ، وبمجرد ازالة هذا التناقض فإن التطوير الذي تم بواسطة المساعدات التي تخدم مصالح المجتمعات المتقدمة يتحول ليصبح تقدماً يخدم مصالح المجتمعات العائشة لنفسها .

وبناء على ما تقدم فإن حلول الاصلاح المجردة في مثل المجتمعات ذات الطبيعة المزدوجة على الرغم من أنها تخيف بعض الرجعيين من أفراد السلطة المتحكمة فإنها لا تحل التناقضات الخارجية والداخلية في تلك المجتمعات ، ففي معظم الأحيان يكون المحرك خلف هذه الحلول هو المجتمعات المتقدمة التي تقدمها بديلاً للعملية التاريخية وكأنها تقول بذلك لنبدأ عملية الاصلاح قبل ان يبدأ الناس عملية الثورة،ولكي تحقق المجتمعات المتقدمة هذا الهدف فإنها لا تملك خياراً سوى الاستغلال والامتلاك والغزو الاقتصادي والثقافي للمجتمع التابع،وقد تلجأ في بعض الأحيان للغزو العسكري،وتقوم الصفوة في المجتمع المقهور بدور الوسطاء في انجاح مهمة المجتمعات الغازية .

وقبل أن نتقدم لأجل تحليل نظرية العمل الحواري يبدو من المهم أن نشرح باختصار كيف تتكون القيادة الثورية وما النتائج التاريخية والاجتماعية التي تتمخض عن العملية الثورية ونقول في ذلك تتكون في العادة مثل هذه القيادة من رجال كانوا - بشكل أو آخر - ينتمون لطبقة المسيطرين ولكنهم في لحظة من اللحظات وتحت ظروف تاريخية معينة استطاعوا أن ينبذوا طبقتهم وينتموا الى طبقة المقهورين في مظهر من مظاهر التماسك الحقيقي الذي يتمناه كل فرد ، وسواء كان هذا الانتماء مبنياً على تحليل علمي للواقع أم لا فإنه يمثل موقفاً من مواقف الحب والالتزام الحقيقي ، ولما كان الانتماء الى المقهورين يستوجب الذهاب اليهم والاتصال بهم يجد هؤلاء انفسهم تلقائياً وقد أصبحوا قادة لأولئك المقهورين . لقد ظهر هؤلاء القادة كانعكاس لتناقضات الطبقة المسيطرة التي أبرزها وضع المقهورين حتى قبل أن يدرك المقهورون حقيقة وضعهم أو حقيقة التناقض القائم بينهم وبين طبقة القاهرين ، وقد يستمر المقهورون في موقف الامتثال لمجتمع القهر وقد يبدأون نتيجة لظروف تاريخية في رؤية حقيقة وضعهم المقهور ، وفي الحالة الأولى كما قال « فانون » يضع

هؤلاء الرجال أنفسهم خارج ذواتهم أما في الحالة الثانية فإنهم قادرون على تمييز القاهرين وتمييز وضعهم بالنسبة لهم وأيضاً في الحالة الأولى فإنهم يستبطنون القاهرين داخل نفوسهم وبالتالي يمتثلون لشخصياتهم المزدوجة التي تستشعر الخوف من الحرية وتفلسف الحياة بطريقة خاطئة أو تعزو الواقع الى قدرية الهية . ان هؤلاء المقهورين في عدم ثقتهم بانفسهم وانسحاقهم . لا يمكنهم أن يبحثوا عن حريتهم بل لعلهم ينظرون الى العصيان على أنه عمل مخالف لمشيئة الله أو رفض غير مشروع للقدر . أما حين يصل الناس الى حالة يعون فيها حقيقة القهر ويستطيعون وضع القاهرين خارج نفوسهم فإنهم يبدأون النضال لتجاوز تناقضاتهم التي قيدتهم زمناً طويلاً . وفي هذه المرحلة يقطعون المسافة بين الضرورة الطبقية والوعي الطبقي .

وإذا عدنا الى الحالة الأولى من جديد فسنجد أن القادة الثوريين لسوء الحظ هم الذين سيشكلون التناقض الجديد عند الناس وأما في الحالة الثانية فإن القادة الجدد يتلقون تأييداً عاطفياً وفورياً من الناس،وقد يزيد هذا التأييد خلال العملية الثورية ، ففي هذه المرحلة يدخل القادة في حوار مباشر مع الناس ويستمر هذا الحوار حتى يصل هؤلاء الى السلطة،وفي تلك اللحظة سيدرك الناس أنهم قد وصلوا بالفعل اليها .

ان هذه المشاركة لا تقلل من روح النضال أو الشجاعة أو القدرة على الحب أو الجسارة اللازمة للقادة الثوريين . لقد اعتبر فيدل كاسترو وجماعته في مرحلة من المراحل مغامرين غير مسئولين ولكن ذلك لم يقلل من مكانتهم كقادة حواريين استطاعوا أن يميزوا أنفسهم مع الناس الذين تحملوا أقسى درجات العنف في عهد ديكتاتورية « باتستا » ولم يكن الانتماء عملاً سهلاً وانما كان يتطلب شجاعة من القادة ومقدرة على حب الجماهير الى درجة التضحية من أجلها . لقد كان الأمر يتطلب من القادة أن يعاودوا النضال بعد كل كارثة يحركهم أمل لا يتلاشى وتصميم على تحقيق النصر في المستقبل وايمان بأن النصر لن يكون من صنع القادة وحدهم بل من صنع القادة مع الشعب أو من صنع الشعب كله قادته وجمهوره .

لقد استقطب « فيدل كاسترو » الشعب الكوبي الذي استطاع من خلال

تجربته التاريخية أن يرفض مجتمع القهر ، فقد استطاع الشعب الكوبي أن يجسم القهر ويتخذ لنفسه موقفاً مضاداً له ولم يدخل « كاسترو » في أي تناقض مع الناس ولكن ذلك لا ينفي أنه لم تحدث بعض الخيانات ، فقد أشار « جيفارا » الى شيء من ذلك في « حرب العصابات » ، وهكذا فإنه نظراً لبعض الظروف التاريخية فإن حركة القادة الثوريين نحو الناس إما أن تتخذ مساراً أفقياً حيث يتحد القادة والجماهير في مواجهة تناقضات القهر واما أن تكون العلاقة متخذة لنفسها شكل مثلث حيث يحتل القادة القمة في موقع تناقضي مع القاهرين والمقهورين في ذات الوقت . وكما أوضحنا فيما سبق فان هذا الموقف يكون مفروضاً على القادة وذلك قبل أن يتبين المقهورون حقيقة واقعهم القهري ، ولا شك أن من أقسى الأمور على القادة الثوريين أن يروا أنفسهم واقفين على النقيض من الجماهير ، لذلك فهم يقاومون هذا الاحساس في أنفسهم ولكن من المهم الاعتراف بهذه الحقيقة عندما يلاحظ أن مواقف القادة الثوريين تتناقض مع مواقف الجماهير التي يمثلونها،ولا شك أنه كي تحقق الثورة أهدافها فلا بد أن تنضم اليها الجماهير،ولكن عندما يحس القادة ببعد الناس عنهم وعدم الثقة بهم فإنهم يعتبرون هذا السلوك منقصة من جانب الشعب وذلك ما يجعلهم يدركون في مثل هذه الحالات العجز الكامن في ضمائر الجماهير في تلك المرحلة ، وفي مثل هذه الحال فإنهم قد يلجأون الى نفس الأساليب التي يلجأ اليها القاهرون لاحكام سلطتهم. وهكذا يخلص القادة الى أنه من غير الممكن الدخول مع الناس في علاقة حوارية قبل السيطرة على السلطة ولذلك فهم يلجأون الى نظرية العمل اللاحواري حيث يستخدمون نفس أساليب القاهرين في التبشير والاستغلال والغزو الثقافي،وباتباعهم هذه الطريق فإنهم سيفشلون في تحقيق الثورة واذا أصابوا بعض النجاح فإنه لن يكون نجاحاً حقيقياً .

ان دور القادة الثوريين في جميع الظروف وبصفة خاصة في الظروف المذكورة سابقاً يكمن في أن يتفهموا تماماً الأسباب التي تؤدي الى عدم الثقة بهم من جانب الناس ويحاولوا أن يجدوا طرقاً أخرى للوصول اليهم بل ومساعدتهم في رؤية ظروف القهر التي تحيط بهم ذلك أن الضمير المقهور يعاني بالضرورة احساساً بالازدواجية والخوف لقد قال « جيفارا » في مذكراته عن « بوليفيا » مشيراً الى عدم مشاركة الفلاحين في الثورة .

« لقد كان حشد الفلاحين غير ممكن إلا بالوسائل الاعلامية التي كانت تزعجنا فلم يكونوا على درجة من السرعة أو الكفاءة ، لذلك ، فقد كان موقفهم محايداً ، وعلى الرغم من أن الفلاحين لم يعودوا يخافوننا بل وأصبحوا يعجبون بنا فإنهم لم يظهروا أي نوع من التعاون أو حتى اذا أظهروه فقد كان بطيئاً وصبوراً » وهكذا فقد أوضح كفاءتهم ، غير أن سلوك الفلاح الذي يشجع القاهر على ممارسة الغزو الثقافي لا بد أن يستفز الثوريين لاستنباط نظرية أخرى في العمل الثوري، فالذي يميز القادة الثوريين من القاهرين ليس فقط أهدافهم بل الوسائل التي يستخدمونها ، فإذا تصرفوا بنفس الطريقة أصبحت أهدافهم واحدة واذا كان طرح مشكلة الواقع على الرجال يتناقض مع أهداف القاهرين فيجب الا يكون الأمر كذلك بالنسبة للقادة الثوريين . ولنتوقف الآن لنحلل النظرية الثورية للحوار الثقافي لنتفهم العناصر التي تكونها .

التعاون :

لقد رأينا في نظرية العمل اللاحواري أن الامتلاك أو الغزو بصفتها حجر الأساس في تلك النظرية يتضمنان وجود فاعل وهو الغازي - ومفعول وهو الذي يحول هذا الغازي الى مجرد شيء،وبعكس ذلك ففي نظرية العمل الحواري فإن الفاعلين يلتقون جميعاً في علاقة تعاونية من أجل تطوير العالم واذا كان « الأنا » اللاحوارية تحول « الأنت » الى مجرد شيء فإن « الأنا » الحوارية كما يقول « مارتن بوبر » تدرك أن « الأنت » قد أدركت واقعها وأن المحتم أن تدخل مع « الأنا » في علاقة جدلية من أجل تغيير العالم ، وهكذا فلا تحتمل نظرية العمل الحواري وجود جماعة يقتصر دورها على السيطرة وتستخدم في ذلك حقاً غير شرعي في الامتلاك كما لا تحتمل وجود آخرين يقتصر دورهم على الانقهار وانما تتضمن هذه النظرية رجالاً لهم هدف واحد يسيرون اليه ، هو تطوير العالم بعد تمييزه ، واذا لم يستطع هؤلاء الرجال لاسباب تاريخية أن يقوموا بدورهم المناط بهم فإن طرح واقعهم عليهم كمشكلة قد يساعد على تبصيرهم بهذا الدور ، ولا يعني ما تقدم أنه في نظرية العمل الحواري ينتفي دور القادة الثوريين بل يعني ما ذهبنا اليه أنه لا يحق هؤلاء القادة برغم أهمية دورهم والحاجة اليهم أن يمتلكوا الناس أو يوجهوهم بطريقة عمياء نحو

الخلاص لأن مثل هذا الخلاص سيكون مجرد منحة من القادة الى الناس وبذلك يتحول الناس من مشاركين في العمل التحريري الى مجرد موضوع له . وبذلك فإن التعاون كركيزة من ركائز العمل الحواري لا يمكن أن يتم الا حين يتشارك الجميع برغم اختلاف اختصاصاتهم وأهميتهم . ولا تتم هذه المشاركة الا بالحوار لأنه في نظرية العمل الحواري لا يوجد هنالك امتلاك باسم الثورة،فالحوار لا يؤدي الى الاستغلال أو التدجين أو الشعارات.ولا يعني ذلك أن نظرية العمل الحواري لا تقود الى شيء أو أن الرجل الحواري ليست لديه فكرة واضحة عما يريد أو أنه لا يعي الأهداف التي نذر نفسه لها ، ذلك أن التزام القادة الثوريين هو في نفس الوقت التزام نحو الحرية ولأجل هذا الالتزام فإن هؤلاء القادة لا يجترئون على امتلاك الناس وانما يسعون الى الالتئام معهم من أجل تحقيق أهداف التحرير ، فإذا تحول هذا الالتئام الى نوع من الغزو لم يعد التئاماً وانما أصبح ضرباً من الاستسلام للمنتصر ، ذلك أن الالتئام الحقيقي هو توافق حر للاختيارات ولا يمكن له أن يتحقق دون اتصال بين الرجال الذين يتوسطهم الواقع .

إذاً فإن التعاون يقود المجتمع الحواري الى النظر في الواقع لمواجهة تحدياته ، ذلك أن مواجهة هذه التحديات هي مسئولية المجتمع الحواري لأجل تطوير الواقع ، ودعني أؤكد أن ما أقصده بطرح الحقيقة كمشكلة لا يعني مجرد رفع الشعارات بل يعني التحليل الناقد للواقع وبهذه الطريقة يستطيع العمل الحواري كشف العالم،وهذا النوع من العمل يختلف عن الممارسات التمويهية التي يقوم بها القاهرون من أجل مزيد من التضليل ، فليس في استطاعة أحد أن يكشف عالم شخص آخر،وقد يكون بمقدور أحد أن يقوم بعملية الريادة في الكشف عن حقيقة الواقع ولكن من المفروض أيضاً أن تشاركه الجماعة أيضاً في القدرة على الكشف، فتكاتف الجماعة لا يصبح ممكناً الا حين تستطيع الجماعة أن تكشف حقيقة الواقع وحقيقة نفسها من خلال الممارسة ، فمثل هذا التكاتف يتطابق مع الثقة التي يضعها الناس في أنفسهم وفي قيادتهم حين يلمسون صدقها.ومن المحتم أن تبادلهم القيادة ثقة بثقة ، غير أن مثل هذه الثقة يجب الا تتسم بالسذاجة ، إذ يجب أن يثق القادة في قدرات الجماهير الكامنة وبذلك لا يعاملونهم كأشياء وانما يعاملونهم كمشاركين في

عملية التحرير ولكن عليهم دائما الا يثقوا في السلوك الازدواجي أو الاستبطان المغلف للمهر عند المقهورين ، فعندما يؤكد « جيفارا » أن العمل الثوري يتسم بعدم الثقة فإنه لا ينفي عنصراً أساسياً في نظرية العمل الحواري ولكنه يحاول أن يكون واقعياً ، وعلى الرغم من أن الثقة هي أساس الحوار فإنها ليست مقدمة لازمة له وانما هي تنشأ حين يتعامل الرجال كمشاركين في تعرية العالم من أجل تطويره ، وما ظل القاهر المستبطن في داخل المقهورين يمارس نفوذاً أقوى فإن خوفهم قد يؤدي بهم الى نبذ القادة الثوريين بدل أن ينبذوا ظروف قهرهم وهنا يتحتم على القادة أن يدركوا مثل هذا الاحتمال ، وقد أكدت حلقات « جيفارا » على هذه المخاطر ، فهي لم تؤكد الهروب فقط بل وضعت احتمالات الخيانة أيضاً ، فهو يؤيد في تلك الوثائق ضرورة معاقبة المارقين للمحافظة على النظام والتماسك بين أفراد الجماعة الثورية ، ولقد حلل « جيفارا » بعض العوامل التي تؤدي الى المروق على الجماعة ومن بين هذه العوامل ولعله أهمها هو الاحساس العدائي غير المبني على أسس واضحة.ولعل في اشارة « جيفارا » في قسم آخر من وثائقه الى وجوده في مجتمع فلاحين في «سيرا مايسترا » بصفته طبيباً لا محارب عصابات ما يتناسب مع مناقشتنا لموضوع التعاون فهو يقول :

« نتيجة للاتصال اليومي باولئك الناس من أجل بحث مشاكلهم أصبحنا مقتنعين جداً بالحاجة الماسة الى تغيير شامل في أسلوب حياة شعبنا ، ولذلك فقد أصبحت الحاجة الى اصلاح المجتمع الزراعي واضحة جداً بالنسبة لنا ، فلقد توقفت الرغبة في الاتصال بالناس عن أن تكون مجرد نظرية لتصبح جزءاً من حقيقتنا .

لقد أخذ رجال العصابات والفلاحون ينبثون كقوة واحدة متماسكة وبرغم ذلك فلا يستطيع أحد أن يقول متى في هذا النضال الطويل قد أصبحت الأفكار حقائق وأصبحنا جزءاً من المجتمع الزراعي ، وفيما يختص بي فإن الاتصال بمرضاي في « سيرا » أثار في نفسي قوة كامنة ذات قيمة مختلفة فلن يستطيع الفقراء المقاسون المخلصون من سكان « سيرا » أن يتصوروا أي اسهام قاموا به في ايديولوجية ثورتنا ».

فلنلاحظ هنا تأكيد « جيفارا » على ضرورة الالتحام مع الناس وذلك من أجل احداث التغيير ، فمن خلال الحوار مع الفلاحين استطاع « جيفارا » أن يحدد ملامح نضاله الثوري ، ولعل ما لم يقله « جيفارا » ـ ربما بسبب التواضع ـ هو أن تواضعه وحبه للناس هما اللذان جعلا التلاحم معهم ممكناً ، وبذلك تحول هذا الالتحام الى نوع من التعاون . ولاحظ أن « جيفارا » الذي لم يذهب الى « سيرامايسترا » مع « فيدل كاسترو » وبقية رفقائه كجماعة من الشباب الناقمين بحثاً عن المغامرة يعترف بأن التحامه بالناس توقف عن أن يكون مجرد فكرة نظرية وأصبح جزءاً من تكوينه الشخصي . انه يؤكد أنه منذ تلك اللحظة أصبح الفلاحون موحين لايدلوجية حرب العصابات الثورية التي قادها .

لقد استطاع « جيفارا » بأسلوبه الذي لا يخطئه أحد أن يكشف عن طاقة الحب الكامنة في قلبه والتي تجسدت في اتصاله بالفلاحين،ومن ذلك تنبثق شهادته لأعمال رجل آخر وطن نفسه على الحب وهو « كاميلو توريس » قس العصابات ، فبدون العمل الجماعي الذي كرس التعاون الصادق بين الكوبيين ما كان من الممكن أن يتجاوز الكوبيون وجودهم كأشياء وانما كانوا سيظلون هدفاً لحركة رجال « سيرا مايسترا » الثورية وكأهداف لهذه الثورة ما كان من الممكن ان يلتئموا ، وفي أحسن حال كان سيكون التحامهم تكريساً للقهر ، ففي نظرية العمل الحواري ليست هنالك مرحلة يستغنى فيها العمل الثوري عن الاتصال بالجماهير ، والاتصال في العمل الثوري يؤدي بالضرورة الى التعاون الذي يوحد القادة والجماهير على النحو الذي شرحه « جيفارا » ، ويتكرس هذا التوحيد فقط عندما تكون أهداف الثورة انسانية قوامها الاتصال والحب والتواضع من أجل تحقيق حرية الجميع ، فالحب الثوري هو الذي يخلق الحياة،ولأجل أن تخلق الحياة فلا بد أن يمنع بعض الناس من السيطرة على الحياة ، فبالاضافة الى علاقة الحياة والموت التي تحكم الكون فإن هنالك ظاهرة غير طبيعية وهي ظاهرة الموت الحي،والتي هي تعبير عن عدم تحقق الحياة على النحو الصحيح .

وليس مهماً هنا أن نوضح عن طريق الاحصاء كم من البرازيليين والامريكيين

اللاتينيين يعيشون كجثث صامتة أو ظلال بشرية ، فكم من رجال ونساء وأطفال فقدوا الآمال ووقعوا ضحايا لحرب خفية لا تنتهي أخضعت الرجال للسل وأخضعت الأطفال للأمراض القتالة مما يسميها القاهرون الأمراض القارية .

يقول الأب « تشينو » في احتمال مقاومة مثل هذا الواقع .

« كثير من القساوسة الذين يحضرون المجلس وغيرهم من المثقفين يخشون ضرورة أن نصدر احتجاجاً عاطفياً لادانة الفقر وعدم العدالة دون ان نتعمق في تحليل الأسباب التي أدت الى ذلك حتى ندين النظام الذي كرس عدم العدالة والفقر » .

الوحدة من أجل التحرير : -

بينما يلجأ المتسلطون في نظرية العمل اللاحواري الى سياسة فرق تسد من أجل احكام القهر فإن دور القادة في نظرية العمل الحواري يحتم عليهم أن يعملوا دون كلل لتحقيق الوحدة بين المقهورين من جهة وبينهم وبين الناس من جهة أخرى وذلك من أجل ان يتمكنوا من تحقيق هدف التحرير ، ولا يمكن أن يتحقق هذا المستوى دون ممارسة ، واذا كان دور المتسلطين سهلاً في القيام بمهامهم فليس هذا هو الشأن مع القادة الثوريين ، فالمتسلطون يستطيعون استخدام سلاح القوة وذلك ما لا يستطيع أن يستخدمه الثوريون والمتسلطون يستطيعون تنظيم أنفسهم برغم الخلافات التي تحدث أحياناً والتي يمكن مجابهتها بالوحدة عند أي تهديد والثوريون لا يستطيعون أن يسيروا دون الجماهير وهذا ما يجعل عقبة التنظيم من أهم العقبات التي تصادفهم ، فمن غير المعقول أن تسمح الصفوة المتسلطة للقادة الثوريين بتنظيم أنفسهم ، فمما لا يتفق مع أهداف الصفوة المتسلطة وسياستها السماح لقادة الثورة بتنظيم أنفسهم لأن من طبيعة هذه الصفوة أن تبقى على الجماهير مقسمة،وبالعكس من ذلك فإن وحدة القادة الثوريين لا تكتمل الا بوحدة الجماهير والتصاقها بهم . واذا كانت وحدة الصفوة تكتسب وجودها من التناقض القائم بينها وبين الجماهير فإن وحدة القادة الثوريين على العكس من ذلك تكتمل بازالة مثل هذا التناقض . فالموقف الواضح للقهر ينبني على وجود نوع من الازدواج في داخل

المقهورين لتأكيد خوفهم وقلقهم وذلك ما يعوق أي عمل وحدوي من أجل تحقيق الحرية ويبقى على الظروف التي تكرس حقيقة القهر .

ولا شك أن السيطرة بطبيعتها مقسمة لأنها تجعل الانسان يلتئم مع نوع من الواقع يعمه الزيف ولا يستطيع الفكاك منه لما يحفل به هذا الزيف من عناصر التغريب التي تساعد على تقبل القوة الوهمية التي تكرس هذا الوضع ، وهذا الازدواج يتم عن طريق تقسيم الأنا الى جزئين ، جزءيمتثللواقع القهر وآخر يظل خارج واقع الانسان ممتثلاً لتلك القوة التي يتوهم أنه لا يستطيع لها رداً . وهكذا يتقسم الانسان بين ماضٍ يتشابه مع الحاضر والمستقبل ولا أمل عنده فهو في ظل هذا الواقع لا يستطيع أن يرى نفسه في صيرورة متصلة ولذلك فهو لا يفكر في مستقبل يبنيه مع الجماعة وبمجرد أن يخترق هذه الحواجز فإنه ينبثق مؤكداً ذاته في اطار المجموع ومستهدفاً تغيير الواقع الذي ظل يكبله وفي هذه اللحظة وحدها يصبح فرداً حقيقياً .

ان التفرقة هي عمل من صميم أيدلوجية القهر وأما الوحدة فهي عمل ثقافي يتأتى للمقهورين بموجبه ان يعرفوا كيف ؟ ولماذا ؟ وهذا ما يجعل العمل من أجل الجماهير ليس مجرد شعار بل هو عمل من أجل انبثاق الشخصية الكاملة للفرد والمجموع،ذلك أن هدف العمل الحواري من أجل الحرية لا يعني تحرير الجماهير من واقع معين لتقييدهم بواقع آخر،وانما يعني انطلاق هذه الجماهير من أجل تغيير الوضع الغير العادل الذي ظلوا يمارسونه ، وما دامت وحدة المقهورين تتطلب التماسك بينهم بصرف النظر عن واقعهم فإن مثل هذه الوحدة تحتاج بالضرورة الى وعي طبقي ويعني ذلك بالتالي أن الانغماس في القهر الذي ظل ممارساً ضد فلاحي امريكا اللاتينية يستوجب مرحلة من الاحساس الفردي بالقهر قبل أن يتجسد مثل هذا الاحساس في عمل جماعي . ولو أردنا على سبيل المثال أن نقول لفلاح أوروبي انه فرد له كينونة خاصة به فربما بدا له هذا الأمر غريباً ولكن مثل هذا القول لا يبدو غريباً عند فلاحي أمريكا اللاتينية الذين يعيشون في عالم لا يستطيعون أن يميزوا فيه أنفسهم عن الحيوانات والاشجار ، ورجال مثل هؤلاء لا بد لهم أن يكتشفوا

أنفسهم كأفراد جيل بينهم وبين الكينونة ومعنى أن يكتشفوا أنفسهم هو أن يميزوها أولاً « كبيدرو » و« انتونيو » و« جوسيفا » لأن هذا الاكتشاف سيجعلهم يميزون حقيقة معانٍ أخرى كالعالم والرجال والثقافة والأشجار والعمل والحيوانات مما يعني أنهم سيبدأون في تمييز أنفسهم على نحو جديد . فالفلاحون في هذه المرحلة الجديدة سيبدأون ادراك دورهم الجديد كمغيرين للعالم في مقابل حقيقتهم الضائعة في السابق وذلك عن طريق عملهم المبدع،وسيدركون في هذه اللحظة أنهم كرجال لا يستطيعون أن يعيشوا مرة أخرى كأشياء يمتلكها الآخرون،وهكذا يتجاوزون مرحلة الاحساس أنهم أفراد مقهورون الى مرحلة الاحساس الطبقي بهذه الحقيقة . ولذلك فإن أي محاولة لتوحيد الجماهير عن طريق الشعارات تؤدي في النهاية الى تجمع بشري يمارس دوراً ميكانيكياً دون أن يعي أهدافه ، فوحدة المقهورين الحقيقية لا بد أن تتم على المستوى الانساني وليس على مستوى الأشياء ولا بد لها أن تتم في اطار من الوعي المتبادل بين القاعدة والقمة ولا بد للجماهير كي تتحد من أن تقطع حبل الصرة الذي يشدهم الى السحر والخرافة التي هي من مقومات عالم القهر وتستعيض عنه بالعمل الثقافي ذي الطبيعة التاريخية والواقعية لأنه هو الذي يحقق الوحدة في اطار البناء الاجتماعي .

ومما يلاحظ ان الفلاحين يعيشون دائماً في اطار محدود تمارس فيه القهر سلطة محدودة،أما في المدن فإن سلطة القهر واسعة ومعقدة وتمارسها أطراف كثيرة،ذلك أن القهر في القرية يمارسه شخص ما يستجمع في يده سلطة القهر ، أما في المدن فإن الناس يخضعون لقهر لا يستطيعون أن ينسبوه لشخص ما،وفي كلا الحالين فإن سلطة القهر لا تكون واضحة للجماهير ، ففي القرية فإن قرب هذه السلطة من الجماهير يحول دون رؤيتها لذلك فإن العمل الثقافي يتحتم عليه ان يتخذ هدفاً واحداً هو أن يوضح للجماهير في أي موقع من المواقع القهر الذي يمارس ضدهم سواء كان هذا القهر واضحاً أم لا،ويستدعي ذلك أن يتجنب هذا العمل الاسلوب الخطابي غير المجدي وكذلك الأسلوب الميكانيكي الخادع وأن يحول دون أي عمل تمارسه الصفوة المتسلطة لتصرف الجماهير عن توحيد أنفسها من أجل تحقيق أهدافها في الحرية والتغيير .

التنظيم

لقد وضح لنا في نظرية العمل اللاحواري ان الاستغلال عنصر أساسي في عملية الامتلاك أو الغزو أما في نظرية العمل الحواري فإن التنظيم هو الرد الحاسم على نزعة الاستغلال ، وعلى الرغم من أن التنظيم يرتبط دائماً بالوحدة فإنه في حقيقته تطور طبيعي لها ، لذلك فإن سعى القادة لتحقيق الوحدة هو في حقيقته سعي من أجل التنظيم الذي تتحقق به أهداف الحرية ، وهو دليل على التواضع والشجاعة والمشاركة في العمل الجماعي حيث يتفادى الناس به الوقوع في أخطاء العمل اللاحواري،وهذا الدليل قد يختلف أسلوبه بحسب الظروف التاريخية التي يعيشها الشعب ولكنه في جميع الأحوال فهو عنصر لا غنى عنه في العمل الثوري . وكي نحدد الاجابة على كيف ولماذا فلا بد أن يكون هنالك وعي ناقد بالواقع التاريخي من خلال مفهوم الجماعة لهذا الواقع،وبعبارة اخرى لا بد من معرفة التناقضات التي تواجه المجتمع وعناصرها الاساسية ، فهذه الأبعاد ذات طبيعة تاريخية وحوارية ولذلك فهي جدلية بطبيعتها ولا بد ان تستمد من واقع المجتمع بمعنى أنه لا يصح استيرادها . فالشاهد أو الدليل في نظرية العمل الحواري لا يمكن له أن يجرد أو يموه لأنه ان حدث الابهام فقد تغرب المجتمع . واستناداً على ما ذكرناه فإن الشاهد في نظرية العمل الحواري من أهم المظاهر التعليمية والثقافية في العمل الثوري .

ومن أهم العناصر الدالة على العمل الثوري والتي لا تتغير بحسب الظروف التاريخية الالتزام في القول والفعل والشجاعة التي تتطلب مواجهة المخاطر والراديكالية-ولا نعني بها المذهبية - التي تتطلب من النموذج والذين يتبعونه زيادة في العمل بالاضافة الى الحب والثقة بالناس .

ولا بد أن نضع في الحسبان أن النماذج الثورية الصادقة تضع في اعتبارها دائماً احتمال الاخفاق في كسب الجماهير الى صفها ،ولكن يجب ألا يؤ دي ذلك الى التقاعس لأن عملها ذو طبيعة ديناميكية،واذا كان العمل اللاحواري يحيد الجماهير ليبسط سيطرته عليها فإن العمل الحواري يقضي على الاستغلال بالتنظيم واذا كان الاستغلال في العمل اللاحواري يخدم أغراض الامتلاك فإن الجرأة والحب اللذين يتميز بهما العمل الحواري يخدمان أهداف التنظيم،وبالنسبة للصفوة المتسلطة فإن التنظيم عندها يعني تنظيم مصالحها وأما بالنسبة للقادة الثوريين فإن التنظيم يعني بالنسبة لهم تنظيم أنفسهم مع الناس،ففي الحالة الأولى تستخدم الصفوة المتسلطة كل امكاناتها للسيطرة والتجريد وفي الحالة الثانية فإن التنظيم هو في حد ذاته ممارسة للحرية ولكن برغم ذلك فيجب ان نفرق بين التنظيم واعداد الكتائب والمليشيات حقاً انه بدون قيادة فإن أهداف التنظيم لا يمكن أن تتحقق ولكن هذه الحقيقة في ذاتها لا تبرر معاملة الناس كأشياء،فقد عانى الناس كثيراً من الاستلاب في سنين القهر فلا يجوز ان يستغلهم القادة الثوريون من جديد لأنهم بهذا الاستغلال بدل أن يشيعوا الوعي والاحساس في قلوبهم فإنهم في الواقع يهزمون أهداف التنظيم واهمها تحقيق الحرية .

اذاً فإن التنظيم هو عملية يبدأ من خلالها القادة الثوريون تعليم الناس معرفة العالم على الرغم من أنهم لا يقولون كلمتهم الخاصة في ذلك . فهذا الأسلوب هو الصحيح لأنه يتسم بالنزعة الحوارية حيث لا تسمع كلمة القادة وحدها وانما تسمع كلمة الجماهير الى جانبها ، أما القادة الذين يرفضون مبدأ الحوار ويلجأون الى فرض قراراتهم فإنهم في الواقع لا ينظمون الناس بل هم في حقيقتهم يمارسون قهرهم .

ولا يعني بالطبع ما ذكرناه من أن القادة لا يملكون حق فرض كلمتهم على الناس أن يتركوا الحبل على الغارب ليتيحوا بذلك الفرصة أمام أعداء الثورة كي يمارسوا دورهم القهري الذي اعتادوا عليه فنظرية العمل الحواري تعارض التسلط والتسيب وهي في ذات الوقت تؤكد الحزم والحرية لأنه ليست هنالك حرية بدون سلطة وربما كانت هناك سلطة بدون حرية وعلى وجه الاجمال فليست هنالك حرية بدون سلطة وفي نفس الوقت فليست هنالك سلطة بدون حرية فكل أنواع الحرية قد تتحول في بعض الظروف الى سلطة،وهنا يجب الا نفرق بين الحرية والسلطة بل ينبغي معاملتها في علاقة متصلة مع بعضها بعضاً . ولا تتكرس السلطة بمجرد امتلاك الحكم وانما تتكرس عندما تجمع الناس حولها وتفوضهم سلطاتها أما إذا تحول الحكم من فئة الى فئة أو إذا فرض على الغالبية فإنه سرعان ما يتحول الى نوع من التسلط لأن السلطة الحقة هي التي لا تقع في تناقض المواجهة مع الحرية لأنها في حقيقتها حرية قد تحولت الى سلطة.وكما لا تستطيع السلطة الحقة أن توجد بدون حرية فإن التسلط لا يمكن له أن يبسط نفوذه الا اذا أنكر على الناس حرياتهم ، واذاً ففي نظرية العمل الحواري فإن التنظيم يحتاج الى السلطة حتى لا يكون تسلطاً ويحتاج الى الحرية حتى لا يكون فوضى . إنه عملية تعليمية عالية يمارس فيها القادة والناس معاً السلطة والحرية التي تمكنهم من تغيير العالم الذي يحيط بهم .

التآلف الثقافي

إن العمل الثقافي هو في جميع الأحوال عمل منظم يستهدف البيئة الاجتماعية إما بغرض المحافظة عليها واما بغرض تطويرها وكأي عمل منظم وهادف فإن له نظريته التي تحدد اهدافه وتوضح الوسائل التي يتبعها فإما أن يخدم العمل الثقافي أهداف السيطرة واما أن يخدم أهداف التحرير .وبما أن هذين النوعين من العمل يختلفان في نتائجهما فإنهما يخلقان علاقة جدلية قائمة على الدوام والتغير، فلكي يكون التنظيم الاجتماعي فلا بد له من أن يصير وبمعنى آخر فإن الصيرورة هي التي يحقق بها المجتمع الاستمرارية بحسب المفهوم البرغسوني .

وعلى وجه العموم فإن العمل الثقافي الحواري لا يمكن له أن يتخلى عن العلاقة الجدلية بين الدوام والتغير لأن التخلي عن هذه العلاقة معناه التخلي عن الرجال والمجتمع بصفة عامة . ان العمل الحواري يستهدف احتواء المتناقضات وبذلك يتمكن من تحقيق حرية الرجال . أما نظرية العمل اللاحواري فانها تبقى على هذه التناقضات لكي تحول دون تحقيق التطوير اللازم لتحرير الرجال وبمعنى آخر فإن نظرية العمل اللاحواري تحاول أن تبقى على العناصر التي تكرس السيطرة في النظام الاجتماعي ، واذا كان المتسلطون يرفضون التغير الذي يهدد سلطتهم فانهم يقبلون بعض الاصلاحات التي لا تهدد سلطتهم في القهر وبذلك يتأتى لهم ان يحققوا الامتلاك والتفرقة والاستغلال والغزو الثقافي . انه أسلوب مصطنع لا يقبله العمل

الحواري لأن العمل الحواري يستهدف التحرير ، ففي نظرية الغزو الثقافي يستمد الممثلون نظريات أدوارهم من قيمهم وايدلوجياتهم الخاصة حيث يبدأون من عالمهم الخاص يغزون به عالم المقهورين ، وأما في نظرية التآلف الثقافي فإن الممثلين الذين يأتون من عالم مختلف ويدخلون عالم الجماهير لا يدخلونه كغزاة أو معلمين أو مبشرين بل يدخلونه كمتعلمين مهمتهم تتركز في أن يعرفوا عن الناس ، كذلك في الغزو الثقافي لا يحتاج الممثلون الى الاتصال بالجماهير،وقد يكتفون بالوسائل التقنية يفرضون بها أنفسهم على الناس الذين يقومون بدور المشاهد فحسب.أما في نظرية التآلف الثقافي فإن المحتلين يندمجون مع الناس ليصبحوا مشاركين لهم في العمل الذين يقومون به سوياً تجاه العالم ومرة أخرى في الغزو الثقافي يبقى العالم والناس مجرد أشياء يتعامل بها الممثلون،وأما في التآلف الثقافي فليس هنالك مشاهدون لأن عمل الممثلين انما يتمثل في تطوير الواقع لأجل تحرير الرجال.ويبدو من ذلك أن التآلف الثقافي هو ضرب من العمل يواجه الثقافة ذاتها بوصفه المقوم الذي يصون عناصرها ، فالعمل الثقافي كعمل تاريخي هو وسيلة يتفوق بها الناس على ثقافة السيطرة ومن هذا المفهوم فإن أي ثورة حقيقية هي في واقعها ثورة ثقافية .

إن البحث عن الموضوعات المحركة أو الموضوعات ذات المغزى التي وصفناها في الفصل الثالث تمثل نقطة البدء في عملية التآلف الثقافي . حقاً انه لا يمكن تجزئة هذه العملية الى مرحلتين احداهما تختص بالبحث والموضوع والأخرى تختص بالعمل المؤدي الى التآلف الثقافي ، فهذه التجزئة تعني أن هنالك مرحلة يخضع فيها الناس للبحث والتحليل بواسطة المحللين وكأنهم اشياء،وذلك ما يتفق مع نظرية العمل اللاحواري،وقد تؤدي هذه التجزئة الى نتيجة ساذجة فحواها ان العمل من أجل التحرير يتبع الغزو الثقافي بالضرورة ولكن مثل هذه التجزئة لا مجال لها في العمل الحواري ، فالذين يقومون بتحديد الموضوعات أو النظرية في العمل الحواري ليسوا هم الباحثين فحسب بل يشاركهم في ذلك الرجال الذين يخضع عالمهم للبحث . ان البحث كمؤلف ثقافي يشيع جواً من الابداع يغذي مراحل العمل اللاحقة ولا يمكن لهذا الجو أن يوجد في اطار الغزو الثقافي الذي بتغريبه للرجال يقتل فيهم ملكة الابداع وحماسه ويتركهم بلا أمل خائفين من المغامرة التي لا يمكن أن يتحقق الابداع

بدونها . كذلك فإن الذين يخضعون للغزو مهما كان مستواهم فانهم لا يمكن أن يتجاوزوا النماذج التي حددها لهم الغزاة، وأما في اطار التآلف الثقافي فليس هنالك غزاة وبالتالي فليس هنالك نماذج مفروضة وبدلاً من ذلك فإن هنالك رجالاً يقدمون تحليلاً ناقداً للواقع مقرونا بالعمل وبذلك يشاركون كفاعلين في العملية التاريخية ، وبدل ان يتبع الرجال نماذج من العمل قد حددت لهم فيما قبل فإن القادة والجماهير معاً يسيرون نحو هدف مشترك ، وفي هذا التآلف الثقافي يولد القادة والجماهير في اطار جديد من المعرفة والعمل . فمعرفة الثقافةالمغربة يؤدي الى تطوير ثقافة تحرر الانسان من غربته وبقدر مايحسن مستوى فهم القادة للناس يكون أثرهم في تحسين مستوى الجماهير .

وهكذا في اطار التآلف الثقافي وفي اطاره وحده يمكن أن تحل مشكلة التناقض بين نظرة القادة للعالم ونظرة الناس له ، فالتآلف الثقافي لا يرفض الاختلاف في وجهات النظر لأنه مبنى على مثل هذا الاختلاف ولكنه يرفض الغزو الثقافي الذي تمارسه فئة على فئة ويؤيد الدعم الذي تقدمه فئة الى فئة . وينبغي على القادة الثوريين أن يتجنبوا تنظيم أنفسهم بمعزل عن الجماهير وكثيراً ما يرتكب القادة أخطاء وكثيراً ما تخونهم حساباتهم عندما لا يأخذون رأي الناس في العالم مأخذ الجد ، فمثل هذا الرأي يتضمن اهتمامات الناس وشكوكهم وآمالهم وطريقتهم في النظر الى القادة بل وطريقتهم في النظر الى أنفسهم والى القاهرين وهم في هذا الرأي يعبرون عن معتقداتهم الدينية وقدريتهم وطاقة احتمالهم وليس بالامكان رؤية أي عنصر من هذه العناصر بمعزل عن الاخر لأن الرؤية لا بد لها أن تكون شاملة واذا كان المتسلط يهمه أن يرى هذه الاشياء مجتمعةمن أجل الاستعانة بها في احكام سيطرته فإن القادة الثوريين يسعون لمعرفتها لتحقيق التآلف الثقافي،ولا يعني التآلف لمجرد انه تآلف أن أهداف العمل الثوري يجب ان تكون مقصورة على أهداف وانطباعات الجماهير عن العالم لأنه ان اقتصر الأمر على ذلك فمعناه أن دور القادة الثوريين سيحد عند هذه الرؤية . فإذا كان الغزو الثقافي مرفوضاً من قبل القادة فإن الاستسلام المجرد لتطلعات الناس مرفوض أيضاً .

ولكي أكون واضحاً ، في بعض الأحيان لا يتجاوز طموح الناس رغباتهم في

زيادة مرتباتهم ويمكن للقادة في مثل هذه الحال أن يرتكبوا خطأين . اما ان يقصروا عملهم على تحقيق هذا المطلب وإما أن يتجاوزوا هذا المطلب ويستعيضوا عنه بأمر آخر لم يشغل أذهان الناس في هذه المرحلة . ففي الحالة الأولى ينصاع القادة لرغبات الناس وفي الحالة الثانية فإنهم يمارسون الغزو الثقافي لعدم احترامهم لرغبات الجماهير .

أما الحل فيكمن في اعتراف القادة بهذا المطلب أولاً ثم يطرحونه كمشكلة أمام الجماهير،وبعملهم هذا فإنهم يطرحون موقفاً تاريخياً يمثل طلب زيادة الأجور بعداً من أبعاده وسوف يتضح فيما بعد ان مطلب زيادة الأجور لن يكون هو الحل وحده وسيصبح الحل ما قرره قادة العالم الثالث من أنه ما لم يصبح العمال هم أصحاب العمل الحقيقيين فإن اي وسيلة للاصلاح ستكون عديمة الجدوى اذ يجب أن يكون العمال أصحاب العمل وليس بائعيه لأن أي بيع أو شراء للعمل انما هو عبودية مقنعة ، فإثارة الوعي بضرورة أن يصبح العامل مالكاً لعمله وأن العمل هو جزء من العامل وأن الانسان لا يمكن له أن يباع أو يبيع نفسه يقوده خطوة الى الامام أبعد من الحلول المهدئة ، فالانشغال بالتطوير الحقيقي للواقع يؤدي الى تطوير الرجال انسانياً .

وبما أنه في نظرية العمل اللاحواري يخدم الغزو الثقافي أهداف الاستغلال التي تخدم بدورها أهداف القهر والتسلط فإن المقهورين من أجل أن يتحرروا فإنهم يحتاجون أيضاً الى نظرية في العمل التحريري ، وبما أن القاهرين يتوسعون في نظرية العمل القهري دون الاستعانة بالمقهورين فإن المقهورين لا يمكن لهم في ظل الانسحاق واستبطان القهر أن يؤلفوا نظريتهم في العمل التحرري ما لم يحتكوا بالقادة لأنه من خلال هذا الاحتكاك والمشاركة في العمل تتجسد أبعاد النظرية التي يحققون بها حريتهم ويتمكنون بها من تغيير العالم .

الفهرست

هذا الكتاب

لقد توطدت شهرة هذا الكتاب في المجالات التربوية على انه يقدم نظرية جديدة في اساليب التعلم وبخاصة تعليم الكبار ، ولكن المؤلف يحـدد فيه المعـالم الرئيسية في فلسـفة الثورة ، الثورة التي تسـتهدف تحرير الانسان وتوجيه طاقاته نحو تغيير العالم الذي يعيش فيه .

لقد تحدث باولو فرايري في كتابه عن الثورة كعمل يمارسه المقهورون من اجل تجاوز ظروف القهر واكتساب حريتهم وهم في هذه الممارسة يواجهون القاهرين الذين لا يريدون لهم ان يتحرروا بل يريدون لهم ان يستبطنوا ظروف القهر ويعتبروها قدرا لا يمكن رده

ويرى فرايري ان الثورة بهـذا المفهوم ليست منحة يقدمها القادة للافراد وذلك ان الافراد ان لم يبدأوا بتحرير انفسهم ، فلن يمكن للقادة ان تحررهم .

السعر : ١٠ ل.ل. او ما يعادلها